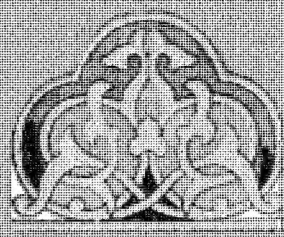


الدَّرةُ الفاخرة

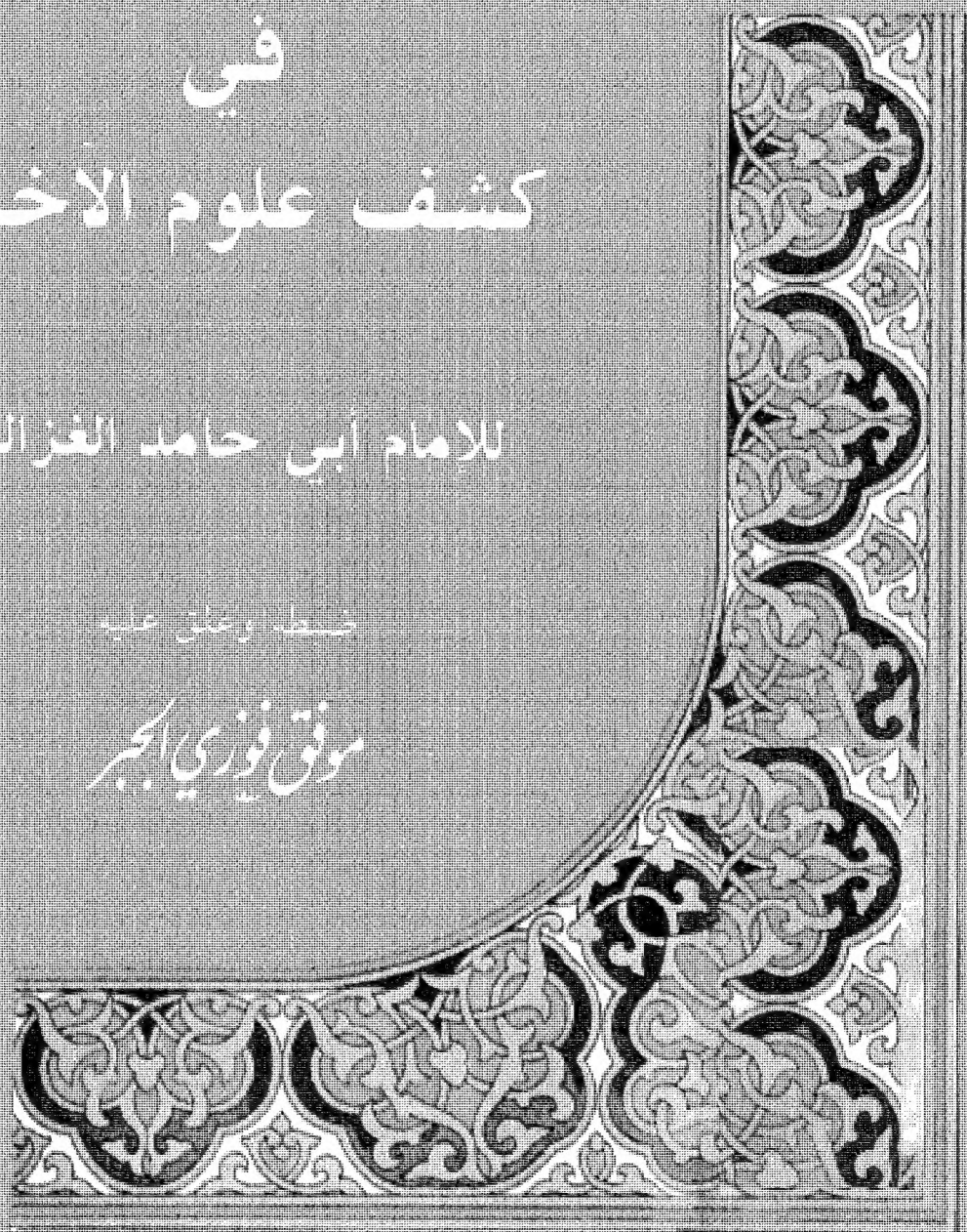


في
كشف علوم الآخرة

للامام أبي حامد الغزالي

خطه ورعته عليه

موفق فوزي الجبر



الدَّرةُ الفاخرة
في
كشف علوم الآخرة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م



دمشق - سورية - بناء سادكوب - الحلبوني

سجل تجاري ٢٤٩٦٨

هاتف ٢٢٣٠٧٣٨ - ٢٢١٢٩٦٧

ص.ب ٧٨٧ - دمشق

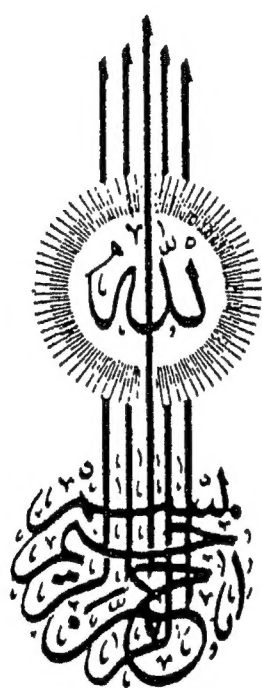
ص.ب ٥٧٢٠ / ١١٣ بيروت

الدَّرةُ الفاخرة في كشف علوم الآخرة

للإمام أبي حامد الغزالي

ضبطه وعلق عليه
موفق فوزي البكر





مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، أحمدته حمداً كثيراً يوفي نعمه،
ويكافئ مزيده، الذي قال في كتابه الكريم: ﴿ومن يشرك بالله
فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان
سحيق﴾ [الحج: ٣١].

والصلاة والسلام على أفضل الخلق أجمعين، وعلى آله
وصحبه والعالمين.
وبعد:

التعريف بالكتاب:

هذا الكتاب للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد
الغزالي المتوفى سنة (٥٠٥هـ) وقد سمّاه بـ [الدرة الفاخرة في
كشف علوم الآخرة]. وقد بحث في هذا الكتاب أموراً تُهم الناس
في دينهم وتميز لهم الطريق السوي من الطريق المعوج من خلال
استدلالاته وبراهينه على هذه الأمور مدعماً قوله بالنصوص القرآنية
الكريمة والحديث الشريف.

فقد قسّم الغزالي كتابه إلى عدّة فصول، ويبحث في كل واحد
منه قضية تفيد أولئك الذين يحرصون على دينهم ويذودون عنه
بكل ما يملكون. وإليك هذه الفصول:

الفصل الأول: في أمثال الذر من المسح على ظهر آدم

الفصل الثاني: في الموتة الدنيوية .

الفصل الثالث: في موت الفاجر

الفصل الرابع: في أحوال الموتى الفجرة في القبور

الفصل الخامس: في أحوال القبور

الفصل السادس: في أحوال الدنيا عند قيام الساعة وما بعد ذلك

الفصل السابع: في الإقامة التي بين النفختين .

الفصل الثامن: في شفاعة النبي ﷺ

الفصل التاسع: في كيفية دعاء أهل الموقف وذكر الاختلاف فيما جاء في تفسيره .

التعريف بالمؤلف: (١)

هو الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الملقب بحجة الإسلام، زين الدين الطوسي، الفقيه الشافعي، ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة .

ويحكى أن والده كان صالحاً، لا يأكل إلا من كسب يده، يعمل في غزل الصوف ويبيعه في دكانه، ولما حضرته الوفاة أوصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف ومن أهل الخير، وقال له: إن لي لتأسفاً عظيماً على تعلم الخط .

(١) ينظر ترجمته في: الأعلام: ٢١٥/٦ .

قرأ الغزالي في صباه من الفقه على أحمد بن محمد الراذكاني، ثم قدم بعد ذلك إلى نيسابور، ولازم إمام الحرمين أبا المعالي الجويني وجدَّ حتى برع في المذهب والخلاف والجدل والمنطق، وقرأ الحكمة والفلسفة، وتصدي للردِّ عليهم وإبطال دعاويهم، وصنّف في كل فن من هذه العلوم كتباً أحسن تأليفها، وأجاد وضعها.

وكان الغزالي شديد الذكاء، شديد النظر، قوي الحافظة، بعيد الغور، غوّاصاً على المعاني، مناظراً محجّاجاً.

ولمّا مات الجويني، خرج الغزالي قاصداً الوزير نظام الملك، وكان مجلسه مجمع أهل العلم، فناظر الأئمة العلماء في مجلسه، واعترفوا بفضله، وولاه نظام الملك مدرسته «النظامية» ببغداد سنة أربع وثمانين وأربعمائة فعظمت حشمته حتى غلبت على حشمة الأمراء والوزراء لما يتحلّى به من حسن الكلام وفصاحة اللسان.

خرج إلى الحج في شهر ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة واستتاب أخاه في التدريس ببغداد.

دخل دمشق بعد عودته من الحج سنة تسع وثمانين وأربعمائة، فلبث فيها أيام يسيرة، ثم توجه إلى بيت المقدس، فجاور ربه مدّة، ثم عاد إلى دمشق، واعتكف بالمنارة الغربية من الجامع، وبها كانت إقامته.

ثم عزم على الذهاب إلى سلطان المغرب يوسف بن تاشفين، لما رأى فيه من العدل ولكنه لم يذهب لوفاة السلطان، ثم عاد إلى خراسان ودرس بالمدرسة النظامية بنيسابور مدة يسيرة، ثم رجع إلى طوس، ووزع أوقاته على وظائف من ختم القرآن، ومجالسة أرباب

القلوب، والتدريس لطلبة العلم، إلى أن انتقل إلى رحمة الله
تعالى. وكانت وفاته بطوس في يوم الاثنين رابع عشر جمادى
الآخرة، سنة خمس وخمسة، وعمره خمس وخمسون سنة.

وقد رثاه الأديب أبو المظفر محمد الأبيوردي، بأبيات منها:

مضى وأعظم مفقود فُجعت به من لا نظير له في الناس يخلفه
وقد دُفن الغزالي رحمه الله بظاهر الطابران، وهي قصبة
طوس.

مصنفاته وآثاره: نذكر منها.

- ١- إحياء علوم الدين
- ٢- أساس القياس
- ٣- أساس المذاهب
- ٤- أسرار المعاملات
- ٥- الاقتصاد في الاعتقاد، بتحقيق: موفق فوزي الجبر.
- ٦- الأنيس في الوحدة
- ٧- أيها الولد
- البيان في مسالك الإيمان
- ٩- تحفة الأدلة
- ١٠- تهافت الفلاسفة في العقائد والكلام

- ١١- جواهر القرآن
- ١٢- حجة الحق
- ١٣- حجة الشرع
- ١٤- حقيقة القوانين
- ١٥- حل الشكوك
- ١٦- خلاصة الفقه
- ١٧- الدرة الفاخرة في كشف علم الآخرة «كتابنا هذا»
- ١٨- الذهب الإبريز.
- ١٩- رسالة الحدود.
- ٢٠- رسالة الطير
- ٢١- زاد المتعلمين
- ٢٢- زاد الآخرة
- ٢٣- زجر النفس
- ٢٤- سرّ العالمين
- ٢٥- شفاء القلوب
- ٢٦- فاتحة العلوم
- ٢٧- الفتاوى
- ٢٨- منهاج العابدين، بتحقيق: موفق سوزي الجبر
- ٢٩- ميزان العمل
- ٣٠- نزهة السالكين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فاتحة الكتاب

الحمد لله الذي خص نفسه بالدوام. وحكم على من سواه بالانصرام وجعل الموت حال أهل الكفر والإسلام. وفصل بعلمه بين تفاصيل الأحكام وجعل حكم الآخرة خلفاً للمعهود من الأيام. وأنهج ذلك لمن يشاء من خلقه أهل الإكرام.

وصلى الله على سيدنا محمد رسول الملك العلام وعلى آله وصحبه الذين خصهم بحزب الإنعام في دار السلام.

أما بعد: فقد قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾^(١) وثبت ذلك في كتابه العزيز في ثلاثة مواضع. وإنما أراد الله سبحانه وتعالى الموتات الثلاث للعالمين. فالمتحيز إلى العالم الدنيوي يموت. والمتحيز إلى العالم الملكوتي يموت والمتحيز إلى العالم الجبروتي يموت.

فالأول آدم وذريته وجميع الحيوانات على ضروبه الثلاث. والملكوتي وهو الثاني أصناف الملائكة والجن وأهل الجبروتي فهم المصطفون من الملائكة: قال الله

(١) وردت في سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.
وفي سورة العنكبوت، الآية: ٥٧.
وفي سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

تعالى: (١) ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾. فهم كروبيون وروحانيون وحملة العرش وأصحاب سرادقات الجلال الذين وصفهم الله تعالى في كتابه وأثنى عليهم حيث يقول: ﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ (٢).

وهم أهل حظيرة القدس المعينون المنعوتون بقول الله تعالى ﴿لا تخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾ (٣).

وهم يموتون على هذه المكانة من الله تعالى والقربى وليس زلفاهم بمانعة لهم من الموت. فأول ما أذكر لك عن الموت الدنيوى فآلق أذنك لتعي ما أورده وأصفه لك بنقل عن الأستاذ من حال إلى حال إن كنت مصدقاً بالله ورسوله واليوم الآخر فأنى ما آتيك إلا ببينة شهد الله على ما أقول وبصدق مقالتي القرآن. وما صرح من حديث رسول الله ﷺ.

(١) سورة الحج، الآية: ٧٥.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٠.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٧.

فصل

في أمثال الذر من المسح على ظهر آدم

لما قبض الله القبضتين اللتين قبضهما عندما مسح على ظهر آدم عليه السلام فكل ما جمعه في جمعه الأول إنما جمع من شقه الأيمن وكل ما جمع في الآخر إنما جمع من شقه الأيسر. ثم بسط قبضته سبحانه فنظر إليهم آدم في راحتيه الكريمتين وهم أمثال الذر ثم قال: «هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي فهم بعمل أهل الجنة يعملون وهؤلاء إلى النار ولا أبالي فهم بعمل أهل النار يعملون فقال آدم عليه السلام: يا رب وما عمل أهل النار قال الشرك بي وتكذيب رسلي وعصيان كتابي في الأمر والنهي: قال آدم عليه السلام أشهدهم على أنفسهم عسى أن لا يفعلوا فأشهدهم على أنفسهم: ألسن بربكم قالوا بلى شهدنا: وأشهد عليكم الملائكة وآدم أنهم أقروا بربوبيته ثم ردهم إلى مكانهم. وإنما كانوا أحياء أنفساً من غير أجسام. فلما ردهم إلى صلب آدم عليه السلام أماتهم وقبض أرواحهم وجعلها عنده في خزانة من خزائن العرش فإذا سقطت النقطة المتعوسة أقرت في الرحم حتى تمت صورتها والنفس فيها ميتة».

فلجوهرها الملكوتي منعت الجسد من التثنية فإذا نفخ الله تعالى فيها الروح رد إليها سرها المقبوض منها الذي خبأه زمانا في خزانة العرش فاضطرب المولود فكم من مولود دب في بطن أمه فربما سمعته الوالدة أو لم تسمعه فهذه موتى أولى وحياة ثانية.

فصل

الموتة الدنيوية

ثم إن الله عز وجل أقامه في الدنيا أيام حياته حتى استوفى أجله المحدود ورزقه المقدور وأثاره المكتوبة . فاذا دنت موته وهي الموتة الدنيوية فحينئذ نزل عليه أربعة من الملائكة ملك يجذب النفس من قدمه اليمنى، وملك يجذبها من قدمه اليسرى . وملك يجذبها من يده اليمنى، وملك يجذبها من يده اليسرى . وربما كشف للميت عن الأمر الملكوتى قبل أن يغرغر فيعاین الملائكة على حقيقة عمله على ما يتحيزون إليه من عالمهم فإن كان لسانه منطلقا تحدث بوجودهم فربما أعاد على نفسه الحديث بما رأى وظن أن ذلك من فعل الشيطان فسكن حتى يعقل لسانه وهو يجذبونها من أطراف البنان ورءوس الأصابع . والنفس تنسل انسلال القذاة من السقاء والفاجر تسل روحه كالسفود من الصوف المبلول هكذا حكى صاحب الشرع عليه الصلاة والسلام والميت يظن أن بطنه ملئت شوكا كأنما نفسه تخرج من خرم إبرة وكأنما السماء انطبقت على الأرض وهو بينهما . ولهذا سئل كعب رضي الله عنه عن الموت فقال كغصن شوك أدخل في جوف رجل فجذبه إنسان ذو قوة فقطع ما قطع وأبقى ما أبقى .

وقال^(١) عثيه الصلاة والسلام: «لسكرة من سكرات الموت أشد من ثلاثمائة ضربة بالسيف» فعندها يرشح جسده عرقاً وتزور عيناه وتمتد أرنبته^(٢) وترتفع أضلاعه ويعلو نفسه ويصفر لونه.

ولما عاينت عائشة رسول الله ﷺ في هذه الحالة وهو مستلق في حجرها وهي تكفكف الدمع جعلت تقول شعراً:

بنفسي أفدي ماغصك	من الهايعات وما توجع
ومامسك الجن من قبل ذا	وما كنت ذا روعة تفزع
ومالي انظر في وجهك	كمثل الصباغ إذا ينقع
إذا شحب اللون من ميت	فأنوار وجهك قد تسطع

فإذا احتضرت نفسه إلى القلب خرس لسانه عن النطق. وما أحد ينطق والنفس مجموعة في صدره لوجهين:

أحدهما أن الأمر عظيم قد ضاق صدره بالنفس المجمعة فيه.

ألا ترى أن الإنسان إذا أصابته ضربة في صدره بقي مدهوشاً فتارة يتكلم وتارة لا يقدر على الكلام وكل مطعون يطعن بصوت إلا مطعون الصدر فإنه يخرم ميتاً من غير تصويت.

وأما الآخر فإن السر الذي فيه حركة الصوت المندفعة من الحرارة الغريزية قد ذهب فصار نفسه متغير الحالتين حال الارتفاع والبرودة لأنه فقد الحرارة فعند هذا الحال تختلف أحوال الموتى فمنهم من يطعنه الملك حينئذ بحربة مسمومة قد سقيت سما من نار فتفر النفس وتفيض خارجة فيأخذها في يده ترعد أشبه شيء

(١) رواه البخاري ومسلم عن عائشة.

(٢) أرنبته: طرف الأنف.

بالزئبق على قدر النحلة شخصا إنسانيا ثم الملائكة تناولها الزبانية ومن الموتى من تحذف نفسه رويدا حتى تنحصر في الحنجرة وليس يبقى في الحنجرة إلا شعبة متصلة بالقلب فحينئذ يطعن بتلك الحربة الموصوفة فان النفس لا تفارق القلب حتى يطعن وسر تلك الحربة أنها تغمس في بحر الموت فاذا وضعت على القلب صار سرها في سائر الجسد كالسم الناقع لأن سر الحياة إنما هو موضوع في القلب ويؤثر سره فيه عند النشأة الأولى وقد قال بعض المتكلمين الحياة غير النفس ومعناها اختلاط النفس بالجسد. وعند استقرار النفس في الترقى والارتفاع يعرض عليه الفتن وذلك أن أبلis قد أنفذ أعوانه إلى هذا الإنسان خاصة واستعملهم عليه ووكلمهم به فيأتون المرء وهو في تلك الحال فيتمثلون له في صورة من سلف من الأحياء الميتين الباغين له النصيح في دار الدنيا كالأب والأم والأخ والأخت والصديق الحميم فيقول له أنت تموت يا فلان ونحن قد سبقناك في هذا الشأن فمت يهوديا فهو الدين المقبول عند الله تعالى فان انصرفوا عنه وأبى جاءه آخرون وقالوا له مت نصرانيا فانه دين المسيح ونسخ به دين موسى ويذكرون له عقائد كل ملة فعند ذلك يزيغ الله من يريد زيغته وهو معنى قوله تعالى: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾^(١).

أي لا تزغ قلوبنا عند الموت وقد هديتنا من قبل هذا إلى الإيمان فاذا أراد الله تعالى بعبده هداية وتثبيتا جاءته الرحمة وقيل

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨.

هو جبريل عليه السلام فطرد عنه الشيطان ويمسح الشحوب عن وجهه فيتبسم الميت ضاحكا لا محالة وكثير من يرى متبسما في هذه الحالة فرحا مسرورا بالبشير الذي جاء رحمة من الله تعالى يقول يا فلان ما تعرفني. أنا جبريل وهؤلاء أعداؤك من الشياطين مت على الحنيفة والشرعية المحمدية فما شيء أحب إلى الإنسان وأفرح منه بذلك الملك. وهو قوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ثم الموت على الفطرة. ومن الناس من يطعن وهو قائم يصلى أو نائم أو مار في بعض أشغاله أو منعكف على اللهو وهو البغته فتقبض نفسه مرة واحدة.

ومن الناس من إذا بلغت نفسه الحلقوم كشف له عن أهل السابقين وأحذق به جيرانه من الموتى وحينئذ يكون له خوار يسمعه كل شيء إلا الإنسان ولو سمعه لصعق.

وآخر ما يفقد من الميت السمع لأن الروح إذا فارقت القلب بأسرها فسد البصر وأما السمع فلا يفقد حتى تقبض النفس ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «لقنوا موتاكم»^(١) شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» ونهى عن الاكثار بها عليهم لما يجدونه من الهول الأعظم والكرب الأقصم.

فاذا نظرت إلى الميت قد سال لعبه وتقلصت شفتاه وأسود وجهه وازرقت عيناه فاعلم بأنه شقي، قد كشف له عن حقيقة شقوته في الآخرة، وإذا رأيت الميت جاف الفم كأنه يضحك منطلق الوجه مكسورة عينه فاعلم أنه بشر بما يلقاه في الآخرة من

(١) وردت في المطبوع «موتاكم» وهو خطأ مطبعي.

السرور وكشف له عن حقيقة كرامته .

فاذا قبض الملك النفس السعيدة تناولها ملكان حسان الوجوه عليهما أثواب حسنة ولهما روائح طيبة فيلفونها في حريرة من حرير الجنة وهي على قدر النحلة شخصا إنسانيا ما فقد من عقله ولا من علمه المكتسب في دار الدنيا فيخرجون به في الهواء منهم من يعرف ومنهم من لا يعرف فلا تزال تمر بالأمم السالفة والقرون الخالية كأمثال الجراد المنتشر حتى تنتهي إلى سماء الدنيا فيقرع الأمين الباب فيقال للأمين من أنت؟ فيقول: أبا صلصيايل أي جبريل وهذا فلان معنى بأحسن أسمائه وأحبها إليه فيقولون له نعم الرجل كان فلان وكانت عقيدته حسنة غير شاك ثم ينتهي إلى السماء الثانية فيقرع الأمين الباب فيقال من أنت فيقول مقالته الأولى فيقال أهلا وسهلاً بفلان كان محافظاً على صلاته وجميع فرائضها ثم يرم حتى ينتهي إلى السماء الثالثة فيقرع الأمين الباب فيقال من أنت فيقول الأمين مقالته الأولى والثانية فيقال كان يرعى الله في حق ماله ولا يتمسك منه بشيء ثم يرم حتى ينتهي إلى السماء الرابعة فيقرع الباب فيقال من أنت فيقول كدأبه في مقالته فيقال أهلا بفلان كان يصوم فيحسن الصوم ويحفظه من إدراك الرفث وحرام الطعام ثم ينتهي إلى السماء الخامسة فيقرع الباب فيقال من أنت فيقول كعادته فيقال أهلا وسهلاً به أدى حجة الله الواجبة عليه من غير سمعة ولا رياء ثم ينتهي إلى السماء السادسة فيقرع الباب فيقال من أنت فيقول الأمين مقالته فيقال مرحبا بفلان كان كثير الاستغفار بالأسحار ويتصدق بالسر ويكفل الأيتام ثم يفتح له فيمر حتى ينتهي إلى سرادقات الجلال فيقرع الباب فيقول ن الأمين مثل قوله فيقال أهلاً وسهلاً ومرحباً بالعبد الصالح والنفس والطيبة كان كثير الاستغفار وينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف ويكرم المساكين

ويمر بملاً من الملائكة كلهم يمشرونه بالجنة ويصافحونه حتى
يتهى إلى سدره المنتهى فيقرع الباب فيقول الأمين كدأبه في مقالته
فيقال أهلاً وسهلاً ومرحباً بفلان كان عمله عملاً صالحاً لوجه الله
تعالى ثم يفتح له فيمر في بحر من نار ثم يمر في بحر من نور ثم
يمر في بحر من ظلمة ثم يمر في ماء ثم يمر في بحر من ثلج ثم
يمر في بحر من برد طول كل بحر منها ألف عام ثم يخترق
الحجب المضروبة على عرش الرحمن وهي ثمانون ألفاً من
السراقات لكل سرادق ثمانون ألف شرافة على كل شرافة قمر
يهلل الله تعالى ويسبحه ويقده لو برز منها قمر واحد إلى سماء
الدنيا لعبد من دون الله ولأحرقها نوره فحينئذ ينادي مناد من
الحضرة القدسية من وراء السراقات من هذه النفس التي جئتم بها
فيقول فلان بن فلان فيقول الجليل جل جلاله قربوه فنعم العبد
كنت يا عبدي فاذا وقفه بين يديه الكريمتين أخجله ببعض اللوم
والمعاقبة حتى يظن أنه قد هلك ثم يعفو عنه سبحانه .

كما روى عن يحيى بن أكثم القاضي وقد رُئي في المنام ف قيل :
له ما فعل الله بك فقال وقفني بين يديه ثم قال : يا شيخ السوء
فعلت كذا وفعلت كذا فقال يا رب ما بهذا حدثت عنك قال :
فماذا حدثت عني يا يحيى فقلت حدثني الزهري عن معمر عن
عروة عن عائشة عن النبي ﷺ عن جبريل عنك سبحانه أنك قلت
إنى لأستحي أن أعذب شبية شابت في الإسلام فقال : يا يحيى ،
صدقت وصدق الزهري وصدق معمر وصدق عروة وصدق
عائشة وصدق محمد وصدق جبريل وقد غفرت لك وعن ابن بنانة
وقد رُئي في المنام ف قيل له ما فعل الله بك فقال : وقفني بين يديه

الكريمتين وقال: أنت الذي تلخص كلامك حتى يقال ما أفصحه قلت سبحانك إني كنت في الدنيا أصفك قال قل كما كنت تقول في دار الدنيا قلت أماتهم الذي خلقهم وأسكتهم الذي أنطقهم وسيوئدهم كما أعدمهم وسيجمعهم كما فرقهم قال لي صدقت أذهب قد غفرت لك .

وعن منصور بن عمار أنه رثي في المنام فقيل له ما فعل الله بك قال وقفت بين يديه الكريمتين وقال لي بماذا جئتني يا منصور قلت بستة وثلاثين حجة قال لي ما قبلت منها ولا واحدة ثم قال بماذا جئتني قلت بثلاثمائة وستين ختمة قرأتها لوجهك الكريم قال ما قبلت منها واحدة ثم قال لي بماذا جئتني يا منصور فقلت جئتك برحمتك قال سبحانه الآن جئتني اذهب فقد غفرت لك . وكثير من هذه الحكايات تخبر بهذه الأمور . وإنما حدثتكم شيئا ليقتدى به المقتدى والله المستعان . ومن الناس من إذا انتهى إلى الكرسي سمع النداء ردوه فمنهم من يرد من الحجب وإنما يصل إلى الله تعالى عارفوه ولا يقف بين يديه إلا أهل المقام الرابع فصاعدا .

فصل في موت الفاجر

وأما الفاجر فتؤخذ نفسه عنفا فإذا وجهه كآكل الحنظل والملك يقول اخرجى أيتها النفس الخبيثة من الجسد الخبيث فإذا له صراخ أعظم ما يكون كصراخ الحمير فإذا عزرائيل ناولها زبانية قباح الوجوه سود الثياب منتنى الريح بأيديهم مسح من شعر فيلفونها فيه فتستحيل شخصاً إنسانياً على قدر الجراحة فإن الكافر أعظم جرماً من المؤمن يعنى الجسم في الآخرة. وفي الصحيح: «أن ضرس الكافر في النار مثل أحد»^(١).

قال فيعرج به حتى ينتهى إلى باب سماء الدنيا فيقرع الأمين الباب فيقال من أنت فيقول أنا قيايل فيقال من معك فيقول فلائى بن فلان بأقبح أسمائه وأبغضها إليه في دار الدنيا فيقال لا أهلاً وسهلاً ولا يفتح له أبواب السماء^(٢): ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ فإذا سمع الأمين هذه المقالة طرحه في يده فتهوى به الريح في مكان سحيق أي بعيد وهو قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾^(٣).

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي والحاكم والبيزار.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) سورة الحج، الآية : ٣١.

فياله من خزي حل به فإذا انتهى به إلى الأرض ابتدرته الزبانية وسارت به إلى سجين وهي صخرة عظيمة تأوى إليها أرواح الفجار وأما اليهود والنصارى فمردودون من الكرسي إلى قبورهم هذا من مات منهم على شريعته ويشاهد غسله ودفنه .

وأما المشرك فلا يشاهد شيئاً من ذلك لأنه قد هوى به .

وأما المنافق فمثل الثاني يرد ممقوتا مطرودا إلى حفرة . وأما المقصرون من المؤمنين فتختلف أنواعهم فمنهم من ترده صلاته لأن العبد إذا نفر في صلاته سارقاً لها تلف كما يلف الثوب الخلق ويضرب بها وجهه ثم تعرج وهي تقول ضيعك الله كما ضيعتني . ومنهم من ترده زكاته لأنه إنما يزكى ليقال فلان متصدق وربما وضعها عند النسوان فاستجلب بها محبتهم . ولقد رأينا عافانا الله مما حل به . ومن الناس من يرده صومه لأنه صام عن الطعام ولم يصم عن الكلام فهو رث وخسران فخرج الشهر عنه وقد لهوجه^(١) .

ومن الناس من يرده حجه لأنه إنما حج ليقال فلان حج أو يكون حج بمال خبيث . ومن الناس من يرده العقوق وسائر أحوال البر كلها لا يعرفها إلا العلماء بأسرار المعاملات وتخصيص العمل الذي للملك الوهاب .

فكل هذه المعاني جاءت بها الآثار والأخبار كالخبر الذي رواه معاذ بن جبل رضى الله عنه في رد الأعمال وغيرها وإنما أردت

(١) أي لم يتقنه .

تقريب الأمر ولولا الاختصار لكنت ملأت الدواوين من تصحيح ذلك وأهل الشرع يعرفون صحة ذلك كما يعرفون أبناءهم.

فاذا ردت النفس إلى الجسد ووجدته قد أخذ في غسله إن كان قد غسل فتقعد عند رأسه حتى يغسل فيكشف الله عن بصر من يشاء من الصالحين فينظرها على صورتها الدنيوية.

وقد حدث شخص أنه غسل ابنا له فإذا هو بشخص قاعد عند رأسه فأدركه الوهم فترك الجهة التي رأى فيها الشخص وتحول إلى الجهة الأخرى فلم يزل ينظره حتى أدرج الميت في كفنه فعاد إليه ذلك الشخص فشاهده العالم وهو على النعش.

كما روى عن غير واحد من الصالحين أنه نادى ميتاً وهو في النعش أين فلان وأين الروح فانتقض الكفن من تلقاه صدره مرتين أو ثلاثة.

وعن الربيع بن خثيم أنه اضطرب في يد غاسله وقد علم أن الميت تكلم في نعشه على عهد الصديق وذكر فضله وفضل الفاروق وإنما هي النفس تشاهد أمراً ملكوتياً ويكشف الله عن سمع من يشاء.

فإذا أدرج الميت في أكفانه صارت الروح ملتصقة بالصدر خارجه ولها خوار وعجيج وهي تقول أسرعوا بي إلى أي رحمة ربي لو علمتم ما أنتم حاملوني إليه.

فإن كان من يبشر بالشقاء يقول: رويدا بي إلى أي عذاب لو تعلمون ما أنتم حاملوني إليه ولأجل ذلك كان رسول الله ﷺ لا يمر به جنازة إلا قام لها قياماً وفي

الصحيح^(١) أنه ﷺ مرت به جنازة فقام لها تعظيماً فقبل: يا رسول الله إنه يهودي؟ فقال: أليست نفساً وإنما كان يفعله لأنه كشف له عن أسرار الملكوت فكان يسر بالميت إذا مر به لأنه من أهل فهمه ومعانيه.

فاذا دخل الميت القبر وأهيل عليه التراب ناداه القبر كنت تفرح على ظهري واليوم تحزن في بطني كنت تأكل الألوان على ظهري والآن تأكلك الديدان في بطني ويكثر عليه مثل هذه الألفاظ الموبخة حتى يسوى عليه التراب ثم يناديه ملك يقال له رومان.

وقد روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال يا رسول الله ما أول ما يلقي الميت إذا دخل قبره قال: يا ابن مسعود ما سألتني عنه أحد إلا أنت فأول ما يناديه ملك اسمه رومان يجوس خلال المقابر فيقول: يا عبد الله اكتب عملك فيقول: ليس معي دواة ولا قرطاس فيقول هيهات كفك قرطاسك ومدادك ريقك وقلبك إصبعك فيقطع قطعة من كفنه ثم يجعل العبد يكتب وإن كان غير كاتب في الدنيا فيكتب حينئذ حسناته وسيئاته كيوم واحد ثم يطوى الملك الرقعة ويعلقها في عنقه ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾^(٢).

فاذا فرغ من ذلك دخل عليه فتانا القبر وهما ملكان أسودان يخرقان الأرض بأنيابهما لهما شعور مسدولة يجرانها على الأرض كلاهما كالرعد القاصف وأعينهما كالبرق الخاطف ونفسهما

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٣.

كالريح العاصف ويبد كل واحد منهما مقمع من حديد لو اجتمع عليه الثقلان مارفعا لو ضرب به أعظم جبل لجعله دكا فاذا أبصرتهما النفس ارتعدت وولت هاربة فتدخل في منخر الميت فيحيا الميت من الصدر ويكون كهيئته عند الغرغرة ولا يقدر على حركة غير أنه يسمع وينظر قال فيسألانه بعنف وينهرانه بجفاء وقد صار التراب له كالماء حيثما تحرك انفجح فيه ووجد فيه فرجة فيقولان له من ربك ومادينك ومن نبيك وما قبلتك فمن وفقه الله وثبته بالقول الثابت قال من وكلكما على ومن أرسلكما إلى ثم يقول الله ربي ومحمد نبيي والإسلام ديني وهذا ما يقوله إلا العلماء الأخيار فيقول أحدهما للآخر: صدق لقد كفى شرنا ولقن حجتنا ثم يضربان عليه القبر كالقبة العظيمة ويفتحان له بابا إلى الجنة من تلقاء يمينه ثم يفرشان له من حريرها وريحانها ويدخل عليه من نسيمها وروائحها ويأتيه عمله في صورة أحب الأشخاص إليه يؤنسه ويحدثه ويملاً قبره نوراً ولا يزال في فرح وسرور ما بقيت الدنيا حتى تقوم الساعة فليس شيء أحب إليه من قيامها.

ودونه في المنزلة المؤمن القليل العلم والعمل ليس معه حظه من العلم ولا من أسرار الملكوت يلج عليه عمله عقيب رومان في أحسن صورة طيبة الريح حسن الثياب فيقول له أما تعرفني فيقول من أنت الذي من الله على بك في غربتي فيقول أنا عمك الصالح لا تحزن ولا توجل فعما قليل يلج عليك منكر ونكير يسألانك فلا تدهش ثم يلقنه حجته فبينما هو كذلك إذ دخلا عليه كما تقدم ذكرهما فينهرانه ويقعدانه مستندا ويقولان له من ربك فيسبق إلى القول الأول فيقول الله ربي ومحمد نبيي والقرآن إمامي والكعبة

قبلتي وإبراهيم أبي وملته ملتي غير مستعجم فيقولان له صدقت
ويفعلان به كالأول إلا أنهما يفتحان له بابا من النار من تلقاه
شماله فينظر إلى حياتها وعقاربها وأغلالها وسلاسلها وحميمها
وجميع ما فيها من صديدها وزقومها فيفزع فيقولان له لا عليك
سوء هذا موضعك كان من النار قد أبدله الله تعالى به موضعك
هذا من الجنة نم سعيداً ثم يغلغان عنه باب النار ولم يدر مامر
عليه من الشهور والأعوام والدهور.

ومن الناس من ينعجم في مسألته وإن كانت عقيدته مختلفة
امتنع أن يقول الله ربي وأخذ يذكر غيرها من الألفاظ فبضرباته
ضربة يشتعل قبره منها ناراً ثم يطفأ عنه أياما ثم يشتعل عليه أيضاً
ثم دأبه ما بقيت الدنيا ومن الناس من يعتاص عليه ويعسر أن يقول
الإسلام ديني بشك كان يتوهمه أو فتنة تقع به عند الموت فيضربانه
ضربة واحدة فيشتعل عليه قبره ناراً كالأول ومن الناس من يعسر
عليه أن يقول القرآن إمامي لأنه يتلوه ولا يتعظ به ولا يعمل بأوامره
ولا ينتهي بنواحيه يطوف عليه دهره ولا يعظ نفسه خيره فيفعل به ما
فعل بالأولين ومن الناس من يستحيل عمله جروا يعذب به في
قبره على قدر جرمه.

في الأخبار أن من الناس من يستحيل عمله حنوصاً وهو ولد
الخنزير ومن الناس من يعتاص عليه أن يقول محمد نبي لأنه كان
ناسياً لستة ومن الناس من يعتاص عليه أن يقول الكعبة قبلتي لقلة
تحريه في صلاته أو فساد في وضوئه أو التفات في صلاته أو
اختلال في ركوعه وسجوده ويكفيك ما روى في فضائلها أن الله لا

يقبل صلاة ممن عليه صلاة ومن عليه ثوب حرام ومن الناس من
يعتاص عليه أن يقول أبي إبراهيم لأنه سمع كلاما يوما أوهمه
إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا فإذا هو شاب مرتاب فيفعل به ما
فعل بالآخرين وكل هذه الأنواع كشفناها في كتاب الإحياء.

فصل في أحوال الموتى الفجرة في القبور

وأما الفاجر: فيقولان له من ربك فيقول: لا أدري فيقولان له لا دريت ولا عرفت ثم يضربانه بتلك المقامع الحديد حتى يتجلجل في الأرض السابعة ثم تنفضه الأرض في قبره ثم يضربانه سبع مرات. ثم تختلف أحوالهم فمنهم من يستحيل عمله كلباً ينهشه حتى تقوم الساعة وهم المرتابون وهي أنواع تعترى أهل القبور وإنما آثرنا الاختصار في ذكرها وأصلها أن الرجل إنما يعذب في قبره بالشيء الذي كان يخافه في الدنيا فمن الناس من يخاف الجرو أكثر.

وطبائع الخلق مفترقة نسأل الله السلامة والغفران قبل الندامة وقد روى عن غير واحد من الموتى أنه رثى في المنام ف قيل له كيف كان حالك فقال صليت بلا وضوء فوكل الله على ذنبا يروعنى في قبرى فحالى معه سوء حال.

وآخر رثى في المنام فقال ما فعل الله بك فقال عني فاني لم أتمكن في غسل يوم من الجنابة فألبسنى الله ثوباً من نار أتقلب فيها إلى يوم القيامة ورثى آخر ف قيل ما فعل الله بك فقال الغاسل الذي غسلني حملني بعنف فخدشني مسمار كان في المغتسل قائماً فتألمت منه فلما أصبح الصباح سئل الغاسل فقال كان ذلك من

غير اختياري وروئي آخر في المنام فقليل له كيف حالك أو لم تمت قال نعم وأنا بخير غير أن الحجر كسر ضلعي عندما سوى على التراب فأضرني ففتح القبر فوجدوه كما قال وآخر جاء إلى ولده في النوم فقليل له يا ولد سوء أصلح قبر أبيك لقد آذاه المطر فلما أصبح بعث لرجل إلى قبر أبيه فوجد جدولا من الماء وقد أتى عليه من سيل وإذا بالقبر مملوء من الماء وعن أعرابي أنه قال لولده ما فعل الله بك قال ما ضرني إلا أن دفنت بإزاء فلان وكان فاسقا قد روعني ما يعذب به من أنواع العذاب وكثيراً ما جاء في مثل هذه الأخبار حكايات تبين أن أهل القبور يؤلمون في قبورهم وكفى بالخبر دلالة حيث يقول صاحب الشرع عليه السلام يؤلم الميت في قبره كما يؤلم الحي في بيته وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كسر عظام الميت^(١).

وقد مر برجل قاعد على فناء قبر فنهاه وقال لاتودوا الموتى في قبورهم.

وقد زار النبي صلى الله عليه وسلم^(٢) قبر أمه آمنة فبكى وأبكى من كان معه، ثم قال: استأذنت ربي في الاستغفار لها فلم يأذن لي ثم استأذنت أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكر بالموت.

وكان إذا حضر إلى المقابر ليزورها يقول صلى الله عليه وسلم: سلاما على أهل الديار من المسلمين والمؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون أنتم لنا فرط ونحن لكم تبع، اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز بعفوك

(١) رواه أحمد في المسند وأبو داود وابن ماجه عن عائشة:

(٢) رواه مسلم في الصحيح.

عنا وعنهم فكان يعلم نساءه ﷺ إذا خرج النساء إلى المقابر يقول
لهن قولوا هذا الكلام ويعلمهن إياه .

وقال صالح المزني سألت بعض العلماء لأي شيء نهى عن
الصلاة في المقبرة فقال ورد حديث فاستدل بحديث لا تصلوا بين
القبور فان ذلك حسرة لا تنتهي لها^(١) .

وروى عن بعضهم أنه قال قمت أصلي ذات يوم في المقابر
وقد اشتد الحر وقوى إذ رأيت شخصا يشبه أبي جالسا على ظهر
قبره فسجدت فزعا فسمعتة يقول ضاقت عليك الأرض رجبا حتى
جئت تؤذينا بصلاتك منذ زمان .

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ مر بيتيم يبكي على قبر
أبيه فبكى رحمة له ثم قال إن^(٢) الميت ليعذب ببكاء أهله عليه
أي أن ذلك يحزنه ويسوؤه فكم من ميت رئي في المنام فقيل له
كيف حالك يا فلان فيقول حال سوء ساء حالي من فلان وفلانة
كانا يكثران البكاء والنواح عليّ .

إلا أن الزنادقة ينكرون ذلك قبله

ورسول الله ﷺ قال^(٣) : «ما من أحد منكم يمر بقبر أخيه
المؤمن ممن يعرفه في الدين فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه»
وكذا حدث عليه الصلاة والسلام وقد أنصرف عن جنازة

(١) رواه الطبراني .

(٢) رواه البخاري ومسلم عن عمر .

(٣) رواه ابن ماجه .

دفنوها أنه يسمع قرع نعالهم وهم بغيره أسمع وأسمع ومات بعض الفقهاء ولم يوص بشيء ثم طاف على أهل بيته بالليل وقال أعطوا فلانا كيت وكيت من الزرع وادفعوا لفلان كتابه الذي كان عندي مودوعا منذ زمان فلما أصبحوا ذكر كل واحد منهم لأخيه ما رأى ثم دفعوا الزرع وطلبوا الكتاب فلم يجدوه فتعجبوا من ذلك ثم إنهم وجدوه بعد زمان في زوايا البيت.

وعن بعضهم قال اتخذ أبونا لنا مؤدبا يعلمنا الكتابة في الدار فمات فخرجنا إلى قبره بعد ستة أيام وجعلنا نتذاكر أمر الله عز وجل فمر بنا طبق من تين فاشتريناه وأكلناه ورمينا الأذنان على القبر فلما كان تلك الليلة رأى أبونا الشيخ في المنام فقال له كيف حالك فقال بخير غير أو أولادك اتخذوا قبري مزبلة وتحدثوا على بكلام هو كفر فخاصمنا أبونا للشيخ وقال إن الشيخ قال لي إنهم قالوا عند قبري شيئا يشبه الكفر فقلنا يا سبحان الله لا يزال يؤدبنا في الدنيا والآخرة.

ومن هذه الحكايات كثير إلا أنى ذكرت هذا القدر أمثالا ومواعظ ليعتبر بالأقل.

فصل في أحوال أهل القبور

وأما أهل القبور. فعلى أربعة أحوال:

فمنهم القاعد على عقبة حتى تنتثر العين وتورم الجثة ويعود الجسم تراباً ثم لا يزال بعد ذلك طوافاً في الملكوت دون سماء الدنيا.

ومنهم من يرسل الله عليه نعسة فلا يدري ما فعل حتى يتنبه مع النفخة الأولى ثم يموت.

ومنهم من لا يقوم على قبره إلا شهرين أو ثلاثاً ثم تركب نفسه على طير يهوى به في الجنة وهو الحديث الصحيح حيث يقول صاحب الشرع عليه السلام ^(١) «نسمة المؤمن من طائر يعلق في شجر الجنة» وفي المعنى الصحيح والوجه الحسن وكذلك سئل عن أرواح الشهداء فقال ^(٢): «الشهداء في حواصل طيور خضر تعلق بهم في شجرة الجنة».

ومن الناس من إذا بادت عينه عرج به إلى الصور فلا يزال لازماً له حتى ينفخ في الصور والنوع الرابع خص به الأنبياء

(١) رواه النسائي.

(٢) رواه ابن ماجه.

والأولياء ولهم الخيار فمنهم من يكون طوافاً في الأرض حتى تقوم الساعة وكثيراً ما يرى في الليل وأظن الصديق منهم والفاروق.

والرسول ﷺ له الخيار في طواف العوالم الثلاثة وعن هذه الإرادة قال يوماً تنبئها وإشارة ﷺ إبي أكرم على الله من أن يدعني في الأرض أكثر من ثلاث وكانت ثلاث عشرات لأن الحسين قتل على رأس الثلاثين سنة فغضب على أهل الأرض وعرج إلى السماء وقد رآه بعض الصالحين في النوم فقال يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما ترى في فتن أمتك قال زادهم الله فتنة قتلوا الحسين ولم يحفظوني فيه ثم جعل يعدد كلاماً اشتبه على الراوي.

منهم من اختار السماء السابعة كإبراهيم عليه السلام وفي الحديث أنه أمر به ﷺ وهو مسند ظهره إلى البيت المعمور وقد أحرق به أولاد المسلمين وعيسى عليه السلام في السماء الخامسة وفي كل سماء رسل وأنبياء لا يخرجون منها ولا يبرحون حتى الصعقة وليس منهم من له الخيار إلا الخليل والكليم والروح والحبيب هؤلاء ينتهون حيث أرادوا من العالمين وأما الأولياء فمنهم من وقف على البعثة الدنيوية.

كما روى عن أبي يزيد أنه تحت العرش يأكل من مائدة. وعلى هذه الأنواع الأربعة حال أهل القبور يعذبون ويرحمون ويهانون ويكرمون فالذين هم منهم يحدقون بالميت إذا احتضر حتى يضيق بهم رحاب المنازل وربما كشف له فيراهم ويفطن بهم وقد رأيت من حدث بهذا النوع وقد رأيت بعض الأصحاب كشف عن بصيرته فنظر إلى ولده الميت قد ولج البيت والميت يفيق

ويتصور وهذه الفوائد الملكوتية إنما تكون لكریم أو نسیب نسال الله أن یجود لنا بمعرفة ما نخوض به بحر أسرارها حتی یرتفع الشك والارتیاب ومع هذه الأنواع الموصوفة لا یعقل منهم تكوين اللیل والنهار إلا من كان عینه باقية لم یعرج به علوا فممنهم من یعرف الجمعة والأعیاد وإذا خرج أحد من الدنیا اجتمعوا إلیه وعرفوه فهذا یسأل عن زوجته وهذا یسأل عن والده وكل واحد یسأل عن أربه وربما مات المیت فلم یلق أحد معارفه لزیغ یصیبه عند الموت فیموت یهودیا أو نصرانیا فیصیر إلی عساكرهم فاذا قدم أحد من الدنیا سألہ جیرانه ما علیک بفلان فیقول لهم قد مات فیقال إنا لله وإنا إلیه راجعون ما رأیناه سلك به إلی أمه الهاویة وقد رئی بعض الناس فقیل له ما فعل الله بك قال أنا وفلان وفلان وعد خمسة من أصحابه فی خیر كثير ونعمة وكان قتله الخوارج مع أصحابه المعروفین وسأل عن جار له ما فعل الله به فقال ما رأیناه وإنما كان هذا المنکور ألقى نفسه فی الیم حتی مات غرقا وأظنه والله مع قاتلی أنفسهم.

وفي الصحیح أن رسول الله ﷺ قال (١) : «من قتل نفسه بحدیة جاء یوم القیام وحدیته فی یده یتوجأ بها فی بطنه فی بطن جهنم خالداً مخلداً فیها أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو یتردى فی نار جهنم» الحدیث.

وكذلك المرأة تموت بحد لا تزال تجد ذلك الأکم حتی النفخة فهذه حیاة ثانية.

(١) رواه البخاری ومسلم.

وقد صح أن آدم عليه السلام لقي موسى عليه السلام فقال له أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكته واسكنك جنته فلم عصيته قال له يا موسى نعم فقال له في كم سنة وجدت الذنب قدر عليّ قبل فعله قال له كتب عليك قبل أن تفعله بخمسين ألف سنة قال يا موسى أفتلومني على ذنب قدر على قبل أن أفعله بخمسين ألف عام.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بالمرسلين ليلة أسرى به ركعتين وأنه سلم على هارون عليه السلام فدعا له بالرحمة ولأئمة وأنه سلم على إدريس فدعا له بالرحمة ولأئمة وكان أولئك قد ماتوا وبادت أعينهم وإنما هي حياة الأنفس وبعد هذا الإحياء حياة ثالثة والحياة الأولية يوم أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ولا يعتد بالحياة الدنيوية فإنها مسخرة للتنعم.

ويروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال^(١) : «الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا». فهذه أحوال الأموات إذا بادت أعينهم منهم المستقر ومنهم الطواف ومنهم المضروب عليه ومنهم المعذب والدليل على صحة ذلك قوله تعالى^(٢) : ﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾. واليوم بيان عذاب البرزخ.

(١) رواه البيهقي .

(٢) سورة غافر، الآية : ٤٦ .

فصل في أحوال الدنيا عند قيام الساعة وما بعد ذلك

فإذا أراد الله تعالى قيام الساعة دون النفخ في الصور على السر الذي بيناه في الإحياء فاذا الجبال تتطاير وتسير مثل السحاب وإذا البحار قد تفجرت بعضها في بعض وتكورت الشمس فبادت سوداء مزبرة وسجرت الجبال على أمثال عالم الهواء ودخل العالم بعضه في بعض وانتشرت النجوم كالسلك إذا انتثر من نظمه وعادت السماء كدهن الورد تدور كدوران الرجا والأرض قد زلزلت زلزالا شديدا تارة تنقبض وتارة تنبسط كالأديم حتى أن الله يأمر بخلع الأفلاك فلا يبقى في الأرضين السبع ولا السموات السبع ولا في الكرسي حي كائن إلا وقد ذهبت نفسه وإن كان روحانيا ذهبت روحه وقد خلت الأرض من عمارها والسماء من سكانها على ضروب الموحدين ثم إن الله جل جلاله يتجلى في المقام فيقبض السموات السبع في يمينه والأرضين السبع الأخرى ثم يقول الله عز وجل يا دنيا يا دنياه. أين أربابك وأين أصحابك منيتهم بيهجتك وشغلتهم عن آخرتهم برهوك ثم يثنى على نفسه بما شاء ويفتخر بالبقاء المستمر والعز الدائم والملك الباقي والقدرة القاهرة والحكمة الباهرة ثم يقول تعالى لمن الملك اليوم فلا يجيبه أحد فيجيب نفسه بنفسه بأن يقول الله الواحد القهار ثم يفعل فعلا أعظم

من الأول وهو أن يأخذ السموات على أصبع والأرضين على إصبع ثم يهزها ويقول سبحانه أنا الملك الديان أين عبدة الأوثان الذين عبدوا غيري من دوني وأشركوا بي وأكلوا رزقي؟ أين الذين تقووا برزقي على المعاصي؟ أين الجبابرة؟ أين من تكبر وافتخر؟ لمن الملك اليوم كالمرة الأولى ثم يمكث كذلك سبحانه وتعالى ما شاء الله وليس من العرش إلى المقام نسمة تلوح تعقل وقد ضرب الله على آذان الحور والولدان في جنتهم.

ثم يكشف الله سبحانه وتعالى عن بئر في سقر فيخرج منها لهيب النار فتشتعل في الأربعة عشر بحرا كما تشتعل النار في الصوف المنفوش فما تدع منها قطرة واحدة وتدع الأرضين جملة سوداء والسموات كأنها عكر الزيت والنحاس المذاب فإذا دنا اللهيب أن يتعلق بعنان السماء زجر الله النار زجرة خمدت ثم لا يرفع لها لهيب ثم يفتح الله سبحانه وتعالى خزانة من خزائن العرش فيها بحر الحياة فتمطر الأرض فإذا هو كمنى الرجال فيلقى الأرض عطشى ميتة هامدة فتحيا وتهتز ولا يزال المطر عليها حتى يعمها ويكون الماء أربعين ذراعا فإذا جاء الأجسام تنبت من العصص.

وفي الحديث: «أن الإنسان يبدأ من عجب الذنب ومنه يعود».

وفي رواية أخرى يبلى المرء كله إلا عجب الذنب منه بدى ومنه يعود وهو عظم على قدر الحمصة ليس له مخ فمنه تنبت الأجسام في مقابرها كما ينبت البقال حتى يشتبك بعضها في بعض فإذا رأس هذا عندمنكب هذا ويد هذا عند عجز هذا لكثرة البشر

وفي معنى قوله عز وجل^(١) ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾.

نبهنا عليه في كتابنا الإحياء فإذا تمت النشأة على حسبها الصبي صبي والشيخ شيخ والكهل كهل والفتى فتى والشاب شاب أمر الجليل جل جلاله أنه تهب ريح من تحت العرش فيها نار لطيفة فيكشف ذلك عن الأرض وتبقى الأرض بارزة ليس فيها حذب ولا عوج ولا أمت وقد عادت الجبال رمالا وهو الكتيب المهيل ثم يحيى الله سبحانه وتعالى إسرافيل فينفخ في الصور من صخرة بيت المقدس والصور قرن من نور له أربعة عشر دائرة الدارة الواحدة فيها ثقب بعدد أرواح البرية فنخرج أرواح البرايا لها دوي كدوي النحل فتملاً ما بين الخافقين ثم تذهب كل نسمة إلى جثتها فسبحان ملهمهم إياها حتى الوحش والطير وكل ذي روح فإذا الكل كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَفْخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ تَيَّامٌ يَنْظُرُونَ﴾.

والزجرة العظيمة هي الصيحة كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾.

والساهرة هي الأرض السفلى لأنهم فتحوا أبصارهم عند قيامهم فنظروا إلى جبال منسوفة وبحار منزوفة والأرض لاعوج فيها ولا أمت.

والأمت الشيء المرتفع كالربوة والعوج الأرض المنخفضة كالوعدة والأودية وإنما صارت مستوية كأنها صحفة قاعدة فتعجبوا

(١) سورة ق، الآية: ٤٠.

(٢) سورة النازعات، الآية: ١٤.

لما نظروا من الساهرة وقعد كل واحد منهم على قبره عريانا منتظراً متعجباً متفكراً معتبراً كما قال ﷺ في الصحيح^(١) : «عراة غرلاً» أي غير مختونين إلا قوما ماتوا في الغربية مؤمنين لم يكفنوا فإنهم يحشرون وقد كسوا ثياباً من الجنة وأقواماً ماتوا شهداء فيقومون وقد كسوا من الجنة وأقواماً أيضاً من أمة محمد ﷺ متحررين السنة ماخافوا عنها سم الخياط فإن رسول الله ﷺ قال : «بالغوا في أكفان موتاكم فإن أمتي تحشر بأكفانها وسائر الأمم عراة» رواه أبو سفيان مسنداً.

وقال صلى الله عليه وسلم^(٢) : «يحشر الميت في ثيابه وبعض الموتى لما احتضر قال اكسوني الثوب الفلاني فمنع منه حتى مات في غلالة ليس عليه غيرها فرثي في المنام بعد أيام قلائل كأنه حزين فقال له : ما بالك فأعرض عن خطابة ثم قال منعموني ثوبي وجعلتموني أحشر في هذه الغلالة لا غير».

(١) رواه مسلم والبخاري .

(٢) رواه البزار .

فصل في الإقامة التي بين النفختين

وهي الموتة الثانية لأنها منعت من الحواس الباطنة. والموت الجسماني منع من الحواس الظاهرة لأن الأجرام هي الفاعلة للحركة ولأنهم لا يصلون ولا يصومون ولا هم يتعبدون ولو أدخل الله ملكا في جثة لأقام فيها لأنه ذو حرص على التحيز إلى عالمه والنفس جوهر بسيط فإذا ركبت في الجسد صحت حياته وأفعاله.

واختلف الناس في هذه المدة الكائنة بين النفختين واستقر جمهورهم على أنها أربعون سنة وحدثني من لا أشك في علمه ولا معرفته أن أمر ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى لأنه من أسرار الربوبية وكذلك حدثني أن الاستثناء واقع عليه سبحانه وتعالى خاصة فقلت ما معنى قول النبي ﷺ^(١) : «أنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة» فإذا أخى موسى أخذ بقائمة العرش فلا أدري أبعث قبلي أم كان ممن استثناه الله عز وجل فلا يخرج من هذا الحديث على ما نقدره إلا غير أجسام وإن كان موسى الآن لاجثة له وبعد الاستثناء الذي عن رسول الله ﷺ في أمر الفرع لأن البرايا عند الصعقة وعند الفزعة.

كما قال كعب وقد حدث في مجلس عمر بن الخطاب رضي

(١) رواه البخاري.

الله تعالى عنه عن هول المقام حيث قال فلو كان ذلك يا بن الخطاب عمل سبعين نبيا لظننت أنك لا تنجو من ذلك اليوم إلا قوما استثناهم الله في هول الفزع والصعق وهم أهل المقام الرابع لا شك أن موسى أحدهم والاستثناء من بلوغ الأمر ولو كان هناك أحد لأجاب الله تعالى حين يقول لمن الملك اليوم لقال لك يا واحد يا قهار.

فصل

فإذا استوى كل أحد قاعدةً على قبره فمنهم العريان والمكسو والأسود والأبيض ومنهم من يكون له نور كالمصباح العظيم ومنهم من يكون له نور كالشمس إلا أن كل واحد منهم لا يزال مطرقاً برأسه ما يدري ما يصنع ألف عام حتى تظهر نار من المغرب لها دوي تسوق الخلق إلى المحشر فيندهش لها رؤوس الخليقة إنساً وجنأً ووحشاً وطيراً فيأخذ كل واحد عمله ويقول قم وانهض إلى المحشر فمن كان له حينئذ عمل جيد تشخص عمله بغلا ومنهم من تشخص عمله له حماراً ومنهم من تشخص له عمله كبشاً تارة يحمله وتارة يلقيه ويجعل لكل واحد نور شعاعي بين يديه وعن يمينه مثله يسرى بين يديه في الظلمات وهو قوله تعالى: ﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم﴾ وليس عن شمائلهم نور بل ظلمة حالكة لا يستطيع أحد ينظر فيها يحترق فيها الكفار ويتردد المرتابون والمؤمن ينظر إلى قوة حلكتها وشدة حنودها ويحمد الله على ما أطاه من النور المهتدي به في تلك الشدة ويسعى بين أيديهم لأن الله يكشف للعبد المؤمن المتنعم عن أحوال أهل الشقاء المعذبين ليستبين له سبل الفائدة كما فعل أهل الجنة وأهل النار حيث يقول فاطلع فرآه في سواء الجحيم وكما قال سبحانه وتعالى : ﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاه أصحاب النار قالوا

(١) سورة التحريم، الآية: ٨

ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴿١﴾. (١) لأن أربعا لا يعرف قدرها إلا أربعة لا يعرف قدر الحياة إلا الموتى ولا يعرف قدر الشدة إلا أهل النعم ولا يعرف قدر الغنى إلا الفقراء ولا يعرف قدر الصحة إلا المرضى.

ومن الناس من يسعى على قدميه وعلى أطراف بنانه ومنهم من له نور ينطفئ تارة ويشتعل أخرى وإنما نورهم عند البعث على قدر إيمانهم وسرعة خطواتهم على قدر أعمالهم قيل لرسول الله ﷺ في حديث صحيح كيف نحشر يا رسول الله؟ قال (٢) : «اثنان على بعير وخمسة على بعير وعشرة على بعير».

ومعنى هذا الحديث والله أعلم أن قوما يتلاقون في الإسلام فيرحمهم الله تعالى خلق لهم من أعمالهم بعيرا يركبون عليه وهذا من ضعف العمل لأنهم مشتركون معهم فهم كقوم خرجوا في سفر بعيد وليس معهم أحد منهم من يشتري مطية توصله فاشترك في ثمنها رجلان أو ثلاثة فاشتروا مطية يتعقبون عليها في الطريق وقد يبلغ بعير مع عشرة فهذا العجز في العمل معناه قبض اليد في المال أي منع التصرف فيه ومع هذا يحكم له بالسلامة فاعمل هداك الله عملا يكون لك بعيرا خالصاً من الشراكة واعلم أن ذلك هو المتجر الرابع فالمتقون وافدون كما قال الجليل جل جلاله (٣) ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾.

وفي غريب الحديث أن رسول الله ﷺ قال يوما

(١) سورة الإعراف الآية ٤٧

(٢) رواه الحاكم

(٣) سورة مريم، الآية: ٨٥

لأصحابه^(١) : «كان رجل من بني إسرائيل كثيرا ما يفعل الخير حتى إنه ليحشر فيكم» قالوا له : وما كان يصنع قال : «ورث من أبيه مالا كثيرا فاشترى بستانا فحبسه للمساكين وقال : هذا بستاني عند الله وفرق دنانير عديدة في الضعفاء وقال بهذا أشتري جارية من الله تعالى وعبيدا وأعتق رقابا كثيرة وقال هؤلاء خدمي عند الله والتفت ذات يوم إلى رجل ضرير البصر فرآه تارة يمشى وتارة يكبو فابتاع له مطية يسير عليها وقال هذه مطيتي عند الله تعالى أركبها والذي نفسي بيده لكانني أنظر إليها وقد جرى بها مسرجة ملجمة لأركبها في الموقف»^(٢).

وقيل في تفسير قوله تعالى^(٣) ﴿أَمَّنْ يَمْشِي مَكْبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أنه مثل ضربه الله ليوم القيامة في حشر المؤمنين والكافرين.

كما قال الله تعالى^(٤) ﴿وَنَسُوقُ الْمَجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَزُجَّاجًا﴾ أي مشاة على وجوههم هذا قول بعض المفسرين وليس الأمر كما حكاه وإنما السر في ذلك أنه تارة يمشى وتارة يكبو على وجهه.

والذي تأوله بعيد لأن الله تعالى ذكر الأرجل فقال تعالى ﴿وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقوله ﴿عَمِيًّا وَبِكَمَا وَصَمًّا﴾ تفسير غير المقصد الذي أرادوه وترك الإشارة التي نبأك عليها فقد رأيت العرب يتمثلون بها ويقولون هذا يمشي على وجهه إذا كان يكبو

(١) رواه النسائي .

(٢) رواه البزار .

(٣) سورة الملك، الآية : ٢٢ .

(٤) سورة مريم، الآية : ٨٦ .

ومعناه عميا عن النور الذي يشعشع بين أيدي المؤمنين وعن أيمانهم وليس العمى الكلى إرادتهم لأنه لا خلاف أنهم ينظرون السماء تنشق بالغمام والملائكة تنزل والجبال تسير والكواكب تشر.

وكل أهوال يوم القيامة تفسير قوله تعالى^(١) : ﴿أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ فمعنى العمى في القيامة الخوض في الظلمة والمنع عن النظر إلى الكريم إذ نور الله سبحانه وتعالى تشرق به الأرض البيغماء وهم قد ضرب على أبصارهم غشاوة لا ينظرون إلى شيء من ذلك. كذلك ضرب على آذانهم. فلا يسمعون كلام الله تعالى والملائكة الذين ينادون^(٢) ﴿لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون. ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون﴾ وكذلك منعوا من الكلام كأنهم بكم. يفسره قوله تعالى: ﴿هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ والممنوع من الشيء موصوف بالضعف عن قدرته وإن كانت الصفة فيه موجودة كأنها معدومة الوجود في حال دون حال.

ومن الناس من يحشر بفتنته الدنيوية فقوم مفتونون بالعود وعاكفون عليه دهرهم فعند قيام أحدهم من قبره يأخذه يمينه فيطرحه من يده ويقول سحقا لك شغلتنى عن ذكر الله فيعود إليه ويقول أنا صاحبك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

(١) سورة الطور، الآية: ١٥.

(٢) سورة الأعراف الآية: ٤٩.

(٣) سورة المرسلات، الآية: ٣٥-٣٦.

وكذلك يبعث السكران سكران والزامر زامرا وكل أحد على الحال الذي صده عن سبيل الله ومثله الحديث الذي روى في الصحيح^(١) «أن شارب الخمر يحشر والكوز معلق في عنقه والقدح بيده وهو أنتن من كل جيفة على الأرض يلعنه كل من يمر عليه من الخلق».

والميت أيضا يحشر بظلامته وفي الصحيح^(٢) أن المقتول في سبيل الله يأتي يوم القيامة وجرحه يشخب دما اللون لون آدم والريح ريح المسك حتى يقف بين يدي الله عز وجل.

فإذا ساقتهم الملائكة زمرا وأفواجا تحت كل واحد ما قدر له وجمعوا في صعيد واحد من أنس وجن وشيطان ووحش وسبع وطير تحولهم الملائكة إلى الأرض الثانية وهي أرض بيضاء من فضة نورية وصارت الملائكة من وراء العالمين حلقة واحدة فإذا هم أكثر من أهل الأرض بعشر مرات ثم إن الله سبحانه وتعالى يأمر ملائكة السماء الثانية فيحدثون حلقة واحدة فإذا هم مثلهم عشرين مرة ثم تنزل ملائكة السماء الثانية فيحذقون بالكل حلقة واحدة فإذا مثلهم: ثلاثين ضعفا. ثم تنزل ملائكة السماء الرابعة فيحذقون من وراء الكل فتكون حلقة واحدة أكثر منهم بأربعين ضعفا ثم تنزل ملائكة السماء الخامسة فيحذقون من ورائهم حلقة واحدة فيكونون مثلهم: خمسين مرة ثم تنزل ملائكة السماء السادسة فيحذقون من وراء الكل حلقة واحدة وهم مثلهم: ستين

(١) رواه مسلم والبخاري .

(٢) رواه مسلم والبخاري .

مرة تزل ملائكة السماء السابعة فيحرقون من وراء الكل حلقة واحدة وهم مثلهم: سبعين مرة. والخلق تتداخل ويندرج بعضهم في بعض حتى يعلو القدم ألف قدم لشدة الزحام.

ويخوض الناس في العرق على أنواع مختلفة إلى الآذان وإلى الصدر وإلى الحلقوم وإلى المنكبين وإلى الركبتين ومنهم من يصيبه الرشح اليسير كالقاعد في الحمام ومنهم من يصيبه الببل كالعطش إذا شرب الماء.

وأصحاب الرأي هم أصحاب الكراسي. وأصحاب الكعبين قوم يموتون غرقى. والملائكة تناديهم لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون وحدثني بعض العارفين أنهم الأوابون كالفضيل بن عياض وغيره إذ النبي ﷺ قال: ^(١) «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» فإن دليل ذلك قول مطلق.

وهذه الأصناف الثلاثة أهل الرأي والرشح وأهل الكعب هم الذين تبيض وجوههم ومن دونهم تسود وجوههم. وكيف لا يكون القلق والعرق والأرق وقد قربت الشمس من رؤوسهم حتى لو أن أحدا مد يده يضاعف حرها سبعين مرة.

وقال بعض السلف لو طلعت الشمس على الأرض كهيتها يوم القيامة لأحرقت الأرض وأذابت الصخر ونشفت الأنهار فبينما الخلائق يمرحون وهم في تلك الأرض البيضاء التي ذكرها الله تعالى حيث يقول: ^(٢) «يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات

(١) رواه البيهقي في الشعب عن أنس وابن عساكر عن ابن عباس.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

وبرزوا لله الواحد القهار ﴿١﴾ وهم على أنواع في المحشر وملوك أهل الدنيا كالذر كما روى في الخبر^(١) في صفة المتكبر وليس هم كهيئة الذر عينا غير أن الأقدام تطأ عليهم حتى صاروا كالذر في مذلتهم وانخفاضهم.

وقوم يشربون ماء باردا عذبا صافيا لأن الصبيان يطوفون على آبائهم بكؤوس من أنهار الجنة يسقونهم.

وعن بعض السلف الصالحين أنه نام فرأى القيامة قد قامت وكأنه في الموقف عطشان ورأى صبيانا صغارا يسقون الناس قال فناديتهم: ناولوني شربة ماء فقال لي واحد منهم ألك فينا ولد قلت لا قال فلا إذا. وفي هذا فضل التزويج: ولهذا الولد الساقى شروط ذكرناها في كتابنا الإحياء وقوم قد دنا على رؤوسهم ظل يمنعهم من الحر وهي الصدقة الطيبة. ولا يزالون كذلك ألف عام حتى إذا سمعوا نقر الناقور الذي وصفناه في كتابنا الإحياء وهو من بعض أسرار القرآن فتوجل له القلوب وتحشع له الأبصار لعظم نقره وتساق الرؤوس من المؤمنين والكافرين يظنون ذلك عذابا يزداد في هول القيامة فإذا بالعرش يحمله ثمانية أملاك يسير قدم الملك منهم مسيرة عشرين ألف سنة وأفواج الملائكة وأنواع الغمام بأصوات التسبيح لا يطيقه العقول حتى يستقر العرش في تلك الأرض البيضاء التي خلقها الله تعالى لهذا الشأن خاصة فتطرق الرؤوس وتحصر وتنبجس وتشفق البرايا وترعب الأنبياء وتخاق العلماء وتفزع الأولياء والشهداء من عذاب الله الذي لا يطيقه شيء فبينما هم كذلك إذ غشيهم نور غلب على نور الشمس

(١) رواه البزار عن أبي هريرة .

التي كانوا في حرها فلا يزالون يموج بعضهم في بعض ألف عام والجليل لا ينمهم كلمة واحدة فحيث تذهب الناس إلى آدم عليه السلام فيقولون يا آدم يا أبا البشر الأمر علينا شديد .

وأما الكافر فيقول يا رب أرحمني ولو إلى النار من شدة ما يرى من الهول ويقولون يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته ونفخ فيك من روحه اشفع لنا في فصل القضاء فيؤمر بكل حيث يشاء سبحانه تعالى فيفعل بكم ما يشاء فيقول عصيت الله حيث نهاني عن أكل الشجرة إنا أستحي أن أكله في هذه الحالة ولكن اذهبوا إلى نوح عليه السلام فإنه أول المسلمين فيقيمون ألف عام يتشاورون فيما بينهم ثم يذهبون إلى نوح فيقولون له أنت أول المرسلين فيذكرن له مثل ذلك ثم يطلبون منه الشفاعة في فصل القضاء بينهم فيقول: إني دعوت دعوة أغرقت بها أهل الأرض وإني أستحي من الله تعالى أن أسأله مثل ذلك ولكن انطلقوا إلى إبراهيم خليل الله تعالى: هو سماكم المسلمين من قبل فلعله يشفع لكم فيتشاورون فيما بينهم ألف عام ثم يأتونه عليه السلام فيقولون له يا إبراهيم يا أبا المسلمين أنت الذي اتخذك الله خليلا فاشفع لنا إلى الله لعله . يفصل فيما بين خلقه فيقول لهم إني كذبت في الإسلام ثلاث كذبات جادلت بهن عن دين الله فأنا أستحي من الله أن أسأله الشفاعة في مثل هذا المقام ولكن اذهبوا إلى موسى عليه السلام فإنه اتخذ الله كليما وقربه نجيا عسى أن يشفع لكم فيتشاورون فيما بينهم ألف عام والحال يزيد شدة والموقف ضيقا فيأتون موسى فيقولون له يا ابن عمران أنت الذي اتخذك الله كليما وقربك نجيا وأنزل إليك التوراة

فأشفع لنا في فصل القضاء فقد طلل المقام واشتد الزحام وتراكت الأقدام ونادى أهل الكفر والإسلام من طول المقام فيقول لهم موسى إني سألت الله تعالى أن يأخذ آل فرعون بالسنين وأن يجعلهم مثلاً للآخرين وأنا أستحي من الله تعالى أن أسأله الشفاعة في مثل هذا المقام مع أسباب جرت بيني وبينه في المناجاة يلوح فيها تعريض الهلاك إلا أنه ذو رحمة واسعة ورب غفور لكن اذهبوا إلى عيسى عليه السلام فإنه من أصبح المرسلين يقينا وأكثرهم معرفة بالله تعالى وأشدهم زهداً وأبلغهم حكمة فلعله يشفع لكم فيتشاورون فيما بينهم ألف عام والحال يزيد شدة الموقف يزداد ضيقاً وهم يقولون حتى متى نحن من رسول إلى رسول ومن كريم إلى كريم فيأتون عيسى عليه السلام فيقولون له أنت روح الله وكلمته وأنت الذي سماك الله وجيهاً في الدنيا والآخرة اشفع لنا إلى ربك في فصل القضاء فيقول إن قومي اتخذوني وأمي إلهين من دون الله فكيف أشفع عند من عبدت معه وسميت له ابناً وسمي لي أباً ولكن أرأيتم لو كان أحدكم كيس فيه نفقة وعليه خاتم أكان يبلغ إلى ما في الكيس حتى يفض الخاتم؟ قالوا: نعم يا نبي الله قال لهم اذهبوا إلى سيد المرسلين وخاتم النبيين أخى العرب فإنه ادخر دعوته شفاعة لأمته وكثيراً ما آذاه قومه: شجوا جبينه وكسروا رباعيته وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا وإنه لأحسنهم فخارا وأكبرهم شرفاً وهو يقول كما قال الصديق لإخوته ﴿لا تشرب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ وجعل يتلو عليهم من فضائله ﷺ ما لم تمنحه آذانهم حتى امتلأت نفوسهم حرصاً على الذهاب إليه فساروا حتى أتوا إلى منبره ﷺ وقالوا له أنت حبيب الله والحبيب أوجه الوسائط

اشفع لنا إلى ربك فقد ذهبنا إلى أبينا آدم فأحالنا على نوح فذهبنا إلى نوح فأحالنا على إبراهيم وذهبنا إلى إبراهيم فأحالنا على موسى فذهبنا إلى موسى فأحالنا عليك ﷺ وليس بعدك مطلب ولا عنك مهرب فيقول ﷺ أنا لها حتى يأذن الله لمن يشاء ويرضى ثم ينطلق ﷺ إلى سرادقات الجلال فيستأذن فيؤذن له ثم يرفع الحجاب ويلج إلى العرش ويخر ساجدا يمكث فيها ألفا ثم يحمد الله تعالى بمحامد ما حمده بها أحد قط: قال بعض العارفين إن تلك المحامد التي أثنى الله بها على نفسه يوم فراغه من خلقه فيتحرك العرش تعظيما وقد حاز صحيفة من الصحف التي تقدم ذكرها في الإحياء والناس في تلك المدة قد ضاق مكانهم وساءت أحوالهم وترادفت أهوالهم وقد طوق كل واحد منهم ما بخل به في الدنيا فمانع زكاة الإبل يحمل بعيرا على كاهله له رغاء وثقل يعدل الجبل العظيم. ومانع زكاة البقر يحمل ثورا على كاهله له خوار وثقل يعدل الجبل العظيم. والرغاء والخوار كالرعد القاصف.

ومانع زكاة الزرع يحمل على كاهله أعدالا قد ملئت من الجنس الذي كان يبخل به: برا كان أو شعيرا ثقل ما يكون ينادي تحته بالويل والثبور ومانع زكاة المال يحمل شجاعا أقرع له زبيبتان وذنبه قد صب في منخره واستدار بجيده وثقل على كاهله حتى كأنه طوق به كل رحى في الأرض. وكل واحد ينادي ما هذا فتقول لهم الملائكة هذا ما بخلتم به رغبة فيه وشحا عليه وهو قوله تعالى ^(١) ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وآخرون قد

(١) سورة آل عمران: الآية: ١٨٠.

عظمت فروجهم وهي تسيل صديدا تتأذى بتنتهم جيرانهم.
وآخرون قد صلبوا على جدوع النيران وآخرون قد خرجت ألسنتهم
على صدورهم أقبح ما يكون. وهم الزناة واللاطة والكاذبون.
وآخرون قد عظمت بطونهم كالجبال الرواسي وهم آكلوا الربا.
وكل ذنب قد بدا سوء ذنبه ظاهرا عليه.

فصل شفاعة النبي ﷺ

فينادى الجليل جل جلاله يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك
واشفع تشفع فيقول ﷺ يا رب افصل بين عبادك فقد طال مقامهم
وقد أفصح كل واحد بذنبه في عرصات يوم القيامة فيأتى النداء
نعم يا محمد ويأمر الله بالجنة فتزخرف ويؤتى بها ولها نسيم طيب
أعبق ما يكون وأزكى فيوجد ريحها مسيرة خمسمائة عام فتبرد
القلوب وتحيا النفوس إلا من كانت أعمالهم خبيثة فإنهم منعوا من
ريحها فتوضع عن يمين العرش ثم يأمر الله تعالى أن يؤتى بالنار
فترعب وتفرع وتقول للمرسلين إليها من الملائكة: أتعلمون أن الله
خلق خلقاً يعذبني به فيقولون لا وعزته وإنما أرسل إليك لتنتقمي
من عصاة ربك ولمثل هذا اليوم خلقت فيأتون بها تمشي على أربع
قوائم تقاد بسبعين ألف زمام في كل زمام سبعون ألف حلقة لو
جمع حديد الدنيا كله ما عدل منها حلقة واحدة على كل حلقة
سبعون ألف زباني لو أمر زباني منهم أن يدك الجبال لدكها وأن
يهد الأرض لهدها وإذا لها شهيق ودوى وشرر ودخان تفور حتى
تسد الأفق ظلمة فاذا كان بينها وبين الخلق مقدار ألف عام انفلتت
من أيدي الزبانية حتى تأتى إلى أهل الموقف ولها صلصلة
وتصفيق وسحيق فيقال ما هذا فيقال جهنم انفلتت من، أيدي
سائقها ولم يقدروا على إمساكها لعظم شأنها فيجثو الكل على

الركب حتى المتوسلون ويتعلق إبراهيم وموسى وعيسى بالعرش هذا قد نسي الذبيح وهذا قد نسي هارون وهذا قد نسي مريم ويجعل كل واحد منهم يقول يا رب نفسي لا أسألك اليوم غيرها وهو الأصح عندي ومحمد عليه الصلاة والسلام يقول أمتي أمتي سلمها ونجها يا رب وليس في الموقف من تحمله ركبتاه وهو قوله تعالى^(١) : ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ كل أمة تدعى إلى كتابها وعند تفلتها تكبو من الحنق والغيط وهو قوله تعالى^(٢) : ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا﴾ أي تعظيما وحنقا يقول سبحانه وتعالى^(٣) ﴿تكاد تميز﴾ أي تكاد تنشق نصفين من شدة غيظها فيبرز ﷺ ويأخذ بخطامها ويقول لها ارجعي مدحورة إلى خلفك حتى تأتيك أفواجك فتقول خل سبيلي فإنك يا محمد حرام فينادي مناد من سرادقات العرش اسمعي منه وأطيعي له ثم تجذب وتجعل عن شمال العرش ويتحدث أهل الموقف بجذبها فيخف وجلهم وهو قوله تعالى^(٤) : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ .

فهنا لك ينصب الميزان وهو كفتان كفة من نور عن يمين العرش وكفة عن يساره من ظلمة ثم يكشف الجليل عن ساقه فيسجد الناس تعظيما له وتواضعا إلا الكفار فان أصلا بهم تعود حديدا فلا يقدرّون على السجود وهو قوله تعالى^(٥) : ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾ .

(١) سورة الجاثية، الآية : ٢٨ .

(٢) سورة الفرقان : ٦٢ .

(٣) سورة الملك : ٨ .

(٤) سورة الأنبياء، الآية : ١٠٧ .

(٥) سورة القلم، الآية : ٤٢ .

وروى البخاري في تفسيره مسندا إلى رسول الله ﷺ قال (١) :
«يكشف الله عن ساقه يوم القيامة فيسجد كل مؤمن ومؤمنة» وقد
أشفقت من تأويل الحديث وعدلت عن منكره .

وكذا أشفقت من ذكر صفة الميزان وزيفت قول واضعيه بالمثل
وجعلته محيزا إلى العالم الملكوتي فإن الحسنات والسيئات
أعراض ولا يصح وزن الأعراض إلا بالميزان الملكوتي .

فبينما الناس ساجدون إذ نادى الجليل بصوت يسمعه من بعد
كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان حكاه البخاري لا
يجاوزني ظلم ظالم فإن جاوزني فأنا الظالم ثم يحكم بين البهائم
ويقتص للجماء من القرناء ويفصل بين الوحش والطير ثم يقول لها
كوني ترابا فتسوى بها الأرض . ويتمنى الكافر فيقول (٢) «يا ليتني
كنت ترابا» ثم يخرج النداء من قبل الله أين اللوح المحفوظ فيرى
به هوج عظيم فيقول الله أين ماسطرت فيك من توراة وانجيل
وفرقان فيقول سلبني الروح الأمين فيؤتى به يردد وتصطك ركبته
فيقول الله يا جبريل هذا اللوح يزعم أنك نقلت منه كلامي ووحى
أصدق فيقول نعم يا رب فيقول له فما فعلت فيه فيقول أنهيت
التوراة إلى موسى والانجيل إلى عيسى والفرقان إلى محمد ﷺ
وأنهيت إلى كل رسول رسالته وإلى أهل الصحف صحائفهم فإذا
بالنداء يا نوح فيؤتى به يردد وتصطك فرائضه فيقول له يا نوح
زعم جبريل أنك من المرسلين قال صدق فيقول له ما فعلت مع

(١) رواه البخاري .

(٢) سورة النبأ، الآية : ٤٠ .

قومك قال دعوتهم ليلا ونهاراً^(١) ﴿فلم يزدتهم دعائى إلا فرارا﴾
 فاذا بالنداء يا قوم نوح فيؤتى بهم زمرة واحدة فيقال هذا أخوكم
 نوح يزعم أنه بلغكم الرسالة فيقولون يا ربنا كذب ما بلغنا من
 شيء وينكرون الرسالة فيقول الله يا نوح ألك بينة عليهم فيقول نعم
 يا رب بيتى عليهم محمد وأمتة فيؤتى بالنبي فيقول الله عز وجل يا
 محمد هذا نوح يستشهدك فيشهد له بتبليغ الرسالة ويقرأ ﴿إنا
 أرسلنا نوحا﴾ إلى آخرها.

فيقول الجليل قد وجب عليكم الحق وحقت عليكم كلمة
 العذاب فقد حقت على الكافرين فيؤمر بهم زمرة واحدة إلى النار
 من غير وزن عمل ولا حساب ثم ينادى أين عاد فيفعل قوم هود
 مع هود كما فعل مع نوح فيشهد عليهم النبي وخيار أمتة فيتلو^(٢)
 ﴿كذبت عاد المرسلين﴾ فيؤمر بهم إلى النار ثم ينادى يا صالح ويا
 ثمود فيأتون فيستشهدون عندما ينكرون النبي ﷺ فيتلو^(٣) ﴿كذبت
 ثمود المرسلين﴾ إلى آخر القصة فيفعل بهم مثلهم ولا يزال يخرج
 أمة بعد أمة قد أخبر عنهم القرآن بيانا وذكرهم فيه إشارة كقوله
 تعالى^(٤) ﴿وقرونا بين ذلك كثيرا﴾ وقوله^(٥) : ﴿ثم أرسلنا رسلنا
 ترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه﴾ وقوله^(٦) : ﴿والذين من
 بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم﴾.

-
- (١) سورة نوح، الآية: ٦.
 (٢) سورة الشعراء: ١٢٣.
 (٣) سورة الشعراء: ١٤١.
 (٤) سورة الفرقان، الآية: ٣٨.
 (٥) سورة المؤمنون، الآية: ٤٤.
 (٦) سورة إبراهيم، الآية: ٩.

وفي هذا تنبيه على أولئك القرون الطاغية كقوم يارخ ومارخ ودوح وأسر وما أشبه ذلك حتى ينتهى النداء إلى أصحاب الرس وتبع وقوم إبراهيم وفي كل ذلك لا يروج أي يرتفع لهم ميزان ولا توضع لهم حساب وهم عن ربهم يومئذ محجوبون والترجمان يكلمهم لأن من نظر إليه الله وكلمة لم يعذب ثم ينادي بموسى فيأتى وهو كأنه ورقة في ريح عاصف فيقول له يا موسى إن جبريل زعم أنك بلغت الرسالة والتوراة فتشهد له بالبلاغ قال نعم قال فارجع إلى منبرك واتل ما أوحى إليك فيرقى المنبر ويقرأ فينصت كل من في الموقف فيأتى بالتوراة غضة طرية على حسبها يوم انزلت حتى يتوهم الأخبار أنهم ما عارفوها يوما ثم ينادى يادادو فيأتى وهو يرعد كأنه ورقة في ريح عاصف ويقول جل ثناؤه يا داود زعم جبريل أنه بلغك الزبور فتشهد له بالبلاغ فيقول نعم يا رب فيقول له ارجع إلى منبرك واتل ما أوحى إليك فيرقى ويقرأ وهو أحس صوتا وفي الصحيح أنه صاحب مزامير أهل الجنة . فيسمع صوته أما تابوت السكينة فيقتحم الجموع ويتخطى الصفوف حتى يصل إلى داود فيتعلق به فيقول أما وعظك الزبور حتى نويت لى شرا فيخجله ويسكته مفحما فيرتج الموقف لما يرى الناس من شأن داود عليه السلام ثم يتعلق به فيسوقه إلى الله فيرعى عليهم الستر فيقول يا رب أنصفنى منه فإنه تعمدنى بالهلاك وجعلنى أقاتل حتى قتلت وتزوج امرأتى وعنده يومئذ تسع وتسعون امرأة غيرها فيلتفت الجليل إلى داود فيقول له أصدق فيما يقول فيقول له نعم يا رب وهو منكسر رأسه حياء وتوقعا لما ينزل به من العذاب ورجاء فيما وعده الله من المغفرة فكان إذا خاف نكس رأسه وإذا

طمع ورجا رفعه فيقول الله تعالى قد عوضتك عن ذلك كذا وكذا من القصور والولدان فيقول رضيت يا رب ثم يقول لداود اذهب قد غفرت لك . وكذا شأنه سبحانه وتعالى مع من أكرمه يعطي عنه من سعة رفده وعظيم عفوه ثم يقول له ارجع إلى منبرك واقرأ بما بقى من الزبور فيفعل حيثنذ فيؤمر بني إسرائيل أن ينقسموا قسمين قسم مع المؤمنين وقسم من المجرمين . ثم ينادي المنادي أين عيسى بن مريم فيؤتى به فيقول له أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله فيحمد ما شاء الله ويثنى عليه كثيرا ثم يعطف على نفسه بالذم والاحتقار ويقول ﴿سبحانك ما يكون لي أن أقول

ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته﴾^(١) ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾ فيضحك الله تعالى ويقول^(٢) ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ . صدقت يا عيسى ارجع إلى منبرك واتل الإنجيل الذي بلغك جبريل فيقول نعم ثم يقرأ فتشخص إليه الرؤوس من حسن ترديده وترجيعة فإنه أحكم الناس به رواية فيأتى به عضا طريا حتى يظن الرهبان أنهم ما علموا منه آية قط ثم ينقسم النصارى فرقتين المجرمون مع المجرمين والمؤمنون مع المؤمنين . ثم يخرج النداء أين محمد فيؤتى به ﷺ فيقول له يا محمد هذا جبريل يزعم أنه بلغك القرآن فيقول نعم يا رب فيقال له ارجع إلى منبرك واقرأ فيتلو ﷺ القرآن فيأتى به عضا طريا عليه حلاوة يستبشر بها المتقون وإذا وجوههم ضاحكة مستبشرة . والمجرمون وجوههم مغبرة ويستدل على

(١) سورة المائدة، الآية : ١٦

(٢) سورة المائدة، الآية : ١١٩

السؤال المتقدم للرسل والأمم بقوله تعالى^(١) : ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ .

وقيل بقوله تعالى^(٢) ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا أنك أنت علام الغيوب﴾ .

والأول أصح حكيانه في الإحياء لأن الرسل يتفاضلون والمسيح عليه السلام من أجلهم أنه روح الله وكلمته . فإذا تلا النبي ﷺ القرآن توهمت الأمة أنهم ما سمعوه قط .

وقد قالوا للأصمعي تزعم أنك أحفظهم لكتاب الله تعالى قال يا ابن أخي يوم أسمعه من النبي ﷺ كأنني ما سمعته قط فإذا فرغت قراءة الكتب خرج النداء من قبل «مرادقات الجلال» :^(٣) ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ .

فيرتج الموقف ويقوم فيه روع عظيم . والملائكة قد امتزجت بالجن والجن ببني آدم ولج الكل لجة واحدة ثم يخرج النداء يا آدم ابعث من بنيك بعثا إلى النار . فيقول كم يا رب فيقول له من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحدا إلى الجنة فلا يزال يستخرج من سائر الملحدين والغافلين والفساقين حتى لا يبقى إلا قدر حفنة الرب كما قال الصديق نحو حفنة من حفنات الرب ثم يقرب اللعين بالشياطين فمنهم من يزيغ له الميزان فإذا سيئاته ترجح على حسناته وكل من وصلت إليه الشريعة لا بد له من ميزان اعتزلوا وأيقنوا أنهم هالكون قالوا آدم ظلمنا ومكن الزبانية من

(١) سورة الأعراف، الآية: ٦ .

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٠٩ .

(٣) سورة يس، الآية: ٥٩ .

نواصينا فإذا النداء من قبل الله تعالى : لا ظلم اليوم ﴿١﴾ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢﴾ فيستخرج لهم كتاب عظيم يسد ما بين المشرق والمغرب فيه جميع أعمال الخلائق فما من ﴿٣﴾ صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿٤﴾ ولا يظلم ربك أحداً ﴿٥﴾ وذلك أن أعمال الخلائق كل يوم تعرض على الله فيأمر الكرام البررة أن ينسخوها في ذلك الكتاب العظيم وهو قوله تعالى : ﴿٦﴾ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴿٧﴾ ثم ينادي بهم فردا فردا فيحاسب كل واحد منهم فاذا الأقدام تشهد واليدان تشهدان وهو قوله تعالى ﴿٨﴾ : ﴿٩﴾ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴿١٠﴾ .

وقد جاء في الخبر أن رجلا منهم يوقف بين يدي الله تعالى فيقول له يا عبد سوء كنت مجرما عاصيا فيقول ما فعلت فيقال له عليك بينة فيؤتى بحفظته فيقول كذبوا على ويجادل على نفسه وهو قوله تعالى ﴿١١﴾ : ﴿١٢﴾ يوم تأتئ كل نفس تجادل عن نفسها ﴿١٣﴾ .

ويختتم على فيه وهو قوله تعالى ﴿١٤﴾ : ﴿١٥﴾ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴿١٦﴾ . فتشهد جوارحه عليه فيؤمر به إلى النار فيجعل يلوم جوارحه فتقول له ليس عن اختيارنا . أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴿١٧﴾ .

(١) سورة آل عمران، الآية : ١٩٩ .

(٢) سورة الكهف، الآية : ٤٩ .

(٣) سورة الجاثية، الآية : ٢٩ .

(٤) سورة النور، الآية : ٢٤ .

(٥) سورة النحل، الآية : ١١١ .

(٦) سورة يس، الآية : ٦٥ .

ثم يدفعون بعد الفراغ إلى خزنة جهنم فترج أصواتهم بالبكاء والضجيج ويكون لهم رجة عظيمة حين يعرض الموحدون المؤمنون فتحدق بهم الملائكة تلقى كل واحد منهم يقول: هذا يومكم الذي كنتم توعدون.

والفرع الأكبر في أربعة مواضع: عند نقر الناقور وعند تفلت جهنم من الخزنة. وعند إخراج بعث آدم. وعند دفعهم إلى الخزنة.

فإذا بقى الموقف ليس فيه إلا المؤمنون والمسلمون المحسنون والعارفون والصديقون والشهداء والصالحون والمرسلون ليس فيهم مراتب ولا منافق ولا زنديق فيقول الله تعالى يا أهل الموقف من ربكم فيقولون الله فيقول لهم تعرفونه فيقولون نعم فيتجلى لهم ملك على يسار العرش لو جعلت البحار السبعة في نقرة إبهامه ما ظهرت فيقول لهم أنا ربكم بأمر الله فيقولون نعوذ بالله منك فيتجلى لهم ملك عن يمين العرش لو جعلت البحار الأربعة عشر في نقرة إبهامه ما ظهرت فيقول لهم أنا ربكم فيتعوذون بالله منه ثم يتجلى لهم الله تعالى في الصورة التي كانوا يعرفونها وسمعوه وهو يضحك فيسجدون له جميعهم فيقول أهلا بكم ثم ينطلق بهم سبحانه إلى الجنة فيتبعونه فيمر بهم على الصراط والناس أفواج أعنى المرسلين ثم النبيين ثم الصديقين ثم المحسنين ثم الشهداء ثم المؤمنين ثم العارفين ويبقى المسلمون منهم المكبوب على وجهه ومنه المحبوس في الأعراف ومنهم قوم قصرُوا عن تمام الإيمان ومنهم من يجوز الصراط على مائة عام.

وآخر يجوز على ألف عام.

ومع ذلك كله لم تحرق النار كل من رأى ربه عيانا لا يضام في رؤيته.

وأما المسلم والمحسن والمؤمن فقد كشفنا عن مقام كل واحد منهم في كتابنا المسمى بالاستدراج وهم في زمرة الانطلاق قد كثر مرورهم وترددهم بالجوع والعطش قد تفتت أكبادهم لهم نفس كالدخان يشربون من الحوض بكؤوس عدد نجوم السماء وماؤه من نهر الكوثر وقدره من إيلياء إلى صنعاء طولا وعرضه من عدن إلى يثرب وهو قوله عليه الصلاة والسلام^(١) : «منبري على حوضي» أي على أحد حافتيه في المكيال والمقدار والمذادون عنه هم المشتغلون في حبس الصراط بمساوي قبائح ذنوبهم فكم من متوضىء لا يحسن أن يسبغ وضوءه وكم من مصل لم يسأل عن صلاته اتخذ صلاته حكاية قد عريت من الخضوع والخشوع لو قرصه نملة لالتفت.

والعارفون بحلال الله لو قطعت أيديهم وأرجلهم ما ارتجوا لذلك شغلتهن الهيبة والفكرة لعملهم بقدر ما قاموا بين يديه فربما رجل لسعته العقرب في مجلس أمير من الأمراء لم يتحرك صبورا عليها وتعظيما للأمير في المجلس فهذه حالة الآدميين مع مخلوق لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فكيف حال من يكون قائما بين يدي الله عز وجل وهيئته وسلطانه وعظمته وجبروته وحكي الظالم

(١) روى مثله البخاري .

العارف أنه يؤتي به إلى الله تعالى فتخرج عليه المظالم ويتعلق به المظلوم فيقول له التفت أيها المظلوم فوق رأسك فإذا بقصر عظيم تحار فيه الأبصار فيقول ما هذا يا رب فيقول أنه للبيع فاشتره مني فيقول ليس معي ثمنه فيقول إن ثمن هذا أن تبرئ مظلمة أخيك فالقصر لك فيقول قد فعلت يا رب هكذا يفعل الله بالظالمين الأوابين وهو قوله تعالى^(١) : ﴿إِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ والأواب الذي أقلع عن الذنب فلم يعد أبدا وقد سمى داود عليه السلام أوابا وغيره من المرسلين.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٥.

فصل في كيفية دعاء أهل الموقف وذكر الاختلاف فيما جاء في تفسيره

وفي الصحيح^(١) أن أول ما يقضى الله تعالى في الدماء وأول من يعطى الله أجورهم: الذين ذهب أبصارهم. نعم ينادى يوم القيام بالمكفوفين فيقال لهم أنتم أخرى أي أحق من ينظر إليه ثم يستحى الله منهم فيقول لهم أذهبوا إلى ذات اليمين ويعقد لهم راية وتجعل في يد شعيب عليه السلام فيصير أمامهم ومعهم من ملائكة النور ما لا يحصى عددهم إلا الله يزفونهم كما تزف العروس فيمر بهم على الصراط كالبرق الخاطف وصفة أحدهم في الصبر والحلم كابن عباس ومن ضاهاه من هذه الأمة.

ثم ينادى أين أهل البلاء ويريد المجذومين فيؤتى بهم فيجيهم الله بتحية طيبة بالغة فيؤمر بهم إلى ذات اليمين ويعقد لهم راية خضراء وتجعل بيد أيوب عليه السلام فيصير أمامهم إلى ذات اليمين وصفة المبتلى صبر وحلم: كعقيل بن أبي طالب ومن ضاهاه من هذه الأمة. ثم ينادي أين الشباب المتعففون فيؤتى بهم إلى الله فيترحب بهم ويقول ما شاء الله أن يقول ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين ويعقد لهم راية خضراء ثم تجعل في يد يوسف عليه

(١) رواه مسلم والبخاري

السلام ويصير أمامهم إلى ذات اليمين وصفة الشباب صبر وحلم
كراشد بن سليمان ومن ضاهاه من هذه .

ثم يخرج النداء أين المتحابون في الله فيؤتى بهم إلى الله فيترحب
بهم ويقول ما شاء الله ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين وصفة المتحايين في
الله صبر وحلم لا يسخط ولا يسيء من توارد الأحوال الدنيوية كأبي
تراب أعنى علي ابن أبي طالب رضى الله عنه ومن ضاهاه من هذه
الامة ثم يخرج النداء أين الباكون من خشية الله فيؤتى بهم إلى الله
فتوزن دموعهم ودماء الشهداء ومداد العلماء فيرجع الدمع فيؤمر بهم
إلى ذات اليمين ويعقد لهم راية ملونة لأنهم بكوا في أنواع مختلفة هذا
بكى خوفا وهذا بكى طمعا وهذا بكى ندما وتجعل بيد نوح عليه
السلام فتهم العلماء بالتقدم عليهم ويقولون علمنا أبكاهم فاذا النداء
على رسلك يا نوح فتوقف الزمرة ثم يوزن مداد العلماء ودم الشهداء
فيرجح دم الشهداء على مداد العلماء فيؤمر بهم إلى ذات اليمين ويعقد
لهم راية مزعفرة وتجعل في يد يحيى ثم ينطلق أمامهم فهم العلماء
بالتقدم ويقولون عن علمنا قاتلوا فنحن أحق منهم بالتقدم فيضحك الله
عز وجل ويقول هم عندي كانبياي اشفعوا فيمن تشاؤون فيشفع العالم
في أهل بيته وجيرانه وإخوانه ويأمر كل واحد منهم ملكا ينادي في
الناس ألا إن فلانا العالم قد أمره الله أن يشفع فيمن قضى له حاجة أو
أطعمه لقمة أو سقاه شربة ماء حين عطش فيقول إليه من فعل معه شيئا
من ذلك فيشفع له .

وفي الصحيح^(١) أن أول من يشفع المرسلون ثم النبيون ثم

(١) رواه البخاري .

العلماء ويعقد لهم راية بيضاء تجعل في يد إبراهيم عليه السلام فإنه أشد المرسلين مكاشفة. ونضرب عن هذا الفن. ثم ينادي مناد أين الفقراء فيؤتى بهم إلى الله تعالى. فيقول لهم مرحبا بمن كانت الدنيا سجنهم ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين وتعقد لهم راية صفراء وتجعل في يد عيسى عليه السلام ويصير أمامهم إلى ذات اليمين. ثم ينادي أين الأغنياء فيؤتى بهم إلى الله تعالى فيعدد لهم ماخولهم خمسمائة عام ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين وتعقد لهم راية ملونة وتجعل بيد سليمان عليه السلام ويصير أمامهم إلى ذات اليمين.

وفي الحديث^(١) : «أن أربعة يستشهد عليهم بأربعة ينادي بالأغنياء وأهل الغبطة فيقال لهم: ما شغلكم عن عبادة الله؟ فيقولون: أعطانا ملكا وغبطة شغلتنا عن القيام بحقه فيقال: من أعظم ملكا أنتم أم سليمان؟ فيقولون: سليمان، فيقال: ما شغله ذلك عن القيام بحقي؟ ثم يقال: أين أهل البلاء؟ فيؤتى بهم فيقولون: لهم: أي شيء شغلكم عن عباد الله؟ فيقولون: ابتلانا الله في الدنيا فشغلنا عن ذكره والقيام بحقه فيقال لهم: من أشد بلاء أنتم أم أيوب؟ فيقولون: أيوب فيقال: لهم ما شغله ذلك عن القيام بحق الله، ثم ينادي أين الشباب والمماليك؟ فيؤتى بهم فيقال لهم: ما شغلكم عن عبادة الله؟ فيقولون: أعطانا جمالاً وحسناً فتنابه فكنا مشغولين عن القيام بحقه وتقول المماليك:

(١) رواه البيهقي .

شغلنا رق العبودية فيقال لهم: أنتم أكثر جمالا أم يوسف؟ فيقولون: يوسف فيقال: لهم ما شغله ذلك وهو في الرق عن القيام بحق الله؟ ثم ينادي أين الفقراء فيؤتى بهم فيقال لهم: ما شغلهم عن القيام بحق الله؟ فيقولون: ابتلانا في الدنيا بالفقر شغلنا عن القيام بحق الله فيقال لهم: من أشد فقراً عيسى أم أنتم؟ فيقولون: عيسى فيقال: ما شغله عن ذكرنا فمن ابتلى بشيء من هذه الأربع فليذكر صاحبه».

وقد كان ﷺ يقول في دعائه^(١): «اللهم إني أعوذ بك من فتنة الغنى والفقر» فاعتبروا بالمسيح فقد صبح أنه ما كان يملك شيئاً قط وقد لبس جبة صوف عشرين سنة وما كان له في سياحته إلا كوز وسبحة ومشط فرأى يوماً رجلاً يشرب بيده فرمى الكوز ولم يمسه بعد ورأى رجلاً آخر يخلل لحيته بيده فرمى المشط من يده ولم يمسه بعد وكان يقول عليه السلام دابتى رجلاى ويوتى كهوف الأرض وطعامى نباتها وشرابى أنهارها وفي بعض الصحف المنزلة يا بن آدم حسنة وسيئة من أنواع الحياة والقتل متعمدا والخطأ أيضاً إذا استهين بكفارته ولم يقتصر فاحذرهما فإنهما فعل عظيم والكبائر قد يرجى لصاحبها الشفاعة بعد التخليص فأكرمهم يخرج من النار بعد ألف سنة وقد امتحش.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول في كلامه يا ليتنى ذلك الرجل ولا شك أنه كان رحمه الله تعالى عالماً بأحكام الآخرة ويؤتى يوم القيامة برجل فلم يجد حسنة ترجح بها ميزانه أو قد

(١) رواه البخاري -

اعتدلت بالسوية فيقول الله تعالى له رحمة منه اذهب في الناس من يعطيك حسنة أدخلك بها الجنة فيسير يجوس خلال الناس فما يجد أحد يكلمه في ذلك وكل من كلمه وسأله يقول أخشى أن يخفف ميزاني أنا أحوج إليها منك فيأس فيقول له رجل ما الذي تطلب فيقول له حسنة واحدة فلقد مررت بقوم لهم منها ألوف فبخلوا على فيقول له الرجل لقد لقيت الله تعالى فما وجدت في صحيفتي الا حسنة واحدة وما أظن أنها تغني عني سيأخذها هبة مني إليك فينطلق بها فرحاً مسروراً فيقول الله له كيف جاء لك وهو سبحانه أعلم فيقول ما كان منه مع الرجل فيدعى بالرجل الذي أعطاه الحسنة فيقول الله تعالى كرمى أوسع من كرمك خذ بيد أخيك وانطلق به إلى الجنة.

وإذا استوى كفتا الميزان لرجل فيقول الله لا هو من أهل الجنة ولا هو من أهل النار فيأتى الملك بصحيفة يضعها في كفة السيئات فيها مكتوب أف فترجح على الحسنة لأنها كلمة عقوق فيؤمر به إلى النار فيلتفت الرجل ويطلب أن يرده الله إليه فيقول ردوه ثم يقول له أيها العبد العاق لأي شيء تطلب الرد فيقول إلهي إني رأيت أني سائر إلى النار لا بد لي منها وكنت عاقاً لأبي فضعف على عذاب أبي وأنقذه منها قال فيضحك الله ويقول عققت في الدنيا وبررت في الآخرة خذ بيد أهلك وانطلق به إلى الجنة فما من أحد يذهب إلى النار إلا والملائكة توقفه لعلمهم بسر أحكام الآخرة حتى لقد ينادى يقوم لاخلاق لهم خلقوا خطباً لها وحشوا فيقال وقفوهم أنهم مسئولون فتحبس تلك الزمرة حتى يخرج النداء فيهم: مالكم لا تناصرون. فيستسلمون ويعترفون بالذنب كما قال

الله تعالى^(١) : ﴿فاعترفوا بذنبيهم﴾. فيدفعون دفعة واحدة إلى النار.

وكذا يؤتى بأهل الكبائر من الأمة شيوخا وعجائز ونساء وشبانا فإذا نظر إليهم مالك خازن جهنم قال أنتم معاشر الأشقياء مالي أرى أيديكم لا تغسل ولم تسود وجوهكم ما ورد على أحسن حالا منكم فيقولون يا مالك نحن أشقياء أمة محمد دعنا نبكي على ذنوبنا فيقول لهم ابكوا فلن ينفعكم البكاء فكم من شيخ وضع يده على لحيته يقول واشييتاه وأطول حزناه وكم من كهل ينادي وأطول مصيبتاه واذل مقاماه وكم من شاب ينادي واشباباه وكم من امرأة قبضت على شعرها وهي تنادي واسوأناه وافضيحتاه فإذا النداء من قبل الله تعالى يا مالك أدخلهم النار من الباب الأول فإذا همت النار أن تأخذهم يقولون بأجمعهم لا إله إلا الله فتفر النار منهم مسيرة خمسمائة عام فيأخذون في البكاء وإذا النداء يا نار خذيهم يا مالك أدخلهم الباب الأول فعند ذلك يسمع صلصلة كصلصلة الرعد فإذا النار همت أن تحرق القلوب زجرها مالك وجعل يقول لا تحرقى قلبا فيه القرآن وكان وعاء للإيمان ولا تحرقى جباها سجدت للرحمن فيعودون فيها وإذا برجل يعلو صوته على صوت أهل النار فيخرج وقد أمتحش فيقول الله له مالك أكثر أهل النار صياحا فيقول يا رب حاسبتنى ولم أقنط من رحمتك وعلمت أنك تسمعنى فأكثر الصياح فيقول الله تعالى^(٢) : ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾.

(١) سورة الملك، الآية: ١١.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٥٨.

اذهب فقد غفرت لك وكذا يخرج من النار فيقول الله له خرجت من النار فبأي عمل تدخل الجنة فيقول يا رب ما أسألك منها إلا يسيراً فترفع له شجرة منها فيقول الله أرأيت إن أعطيتك هذه الشجرة تسألني غيرها فيقول لا وعزتك يا رب فيقول الله هي هبة مني إليك فإذا أكل منها واستظل بظلها رفعت له شجرة أخرى أحسن منها فيجعل يكثر النظر إليها فيقول الله مالك لعلك احببتها فيقول نعم يا رب فيقول له إن أعطيتك أياها هل تسألني غيرها فيقول لا يا رب فإذا أكل واستظل بظلها رفعت له شجرة أحسن منها فيجعل ينظر إليها فيقول الله له إن أعطيتك إياها تسألني غيرها فيقول لا وعزتك يا رب لا أسألك غيرها فيضحك الله عز وجل فيدخله الجنة. ومن غريب حكم الآخرة أن الرجل يؤتى به إلى الله فيحاسبه ويؤخه وتوزن له حسناته وسيئاته وهو في ذلك كله يظن يقينا أن الله ما اشتغل إلا بحسابه ووزنه ولعل في تلك اللحظة حاسب فيها آلاف ألوف مالا يحصى عدتهم إلا الله كل منهم يظن أن الحساب له وحده وكذا لا يرى بعضهم بعضاً ولا يسمع أحدهم كلام الآخرة بل كل واحد تحت أستاره فسبحان من هذا شأنه وهو قوله تعالى^(١) : ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾.

وهو في قوله سر عجيب من أسرار الملكوت إذ ليس لملكه حد محدود فسبحان مالا يشغله شأن عن شأن وفي هذه الحالة يأتي الرجل إلى ولده فيقول له يا بني إني كسوتك حيث لا تقدر

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٨.

تكسو نفسك وأطعمتك طعاما وسقيتك شرابا حيث كنت عاجزاً عن ذلك وكفلتك صغيرا حيث كنت لا تستطيع دفع الضراء ولا جلب السراء فكم من فاكهة تمنيتها فابتعتها لك حسبك ما ترى من هول يوم القيامة وسيئات أهلك كثيرة فتحمل عني منها ولو سيئة فيخف عني وأعطني ولو حسنة أزيدها في الميزان فيفر منه الولد ويقول له أنا أحوج منك إليها وكذا يفعل الفصيل مع الفصيلة والصاحب والأخ وهو قوله تعالى ^(١) ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ فَوَصَّيْتَهُ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ وفي الحديث ^(٢) «يحشر الناس عراة: قالت عائشة رضي الله عنها: واسوأناه ينظر بعضهم إلى بعض فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم ^(٣) : ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أن شدة الهول وعظم الكرب تشغلهم أن ينظر بعضهم إلى بعض. فإذا استقر الناس في صعيد واحد طلعت عليهم سحابة سوداء فأمطرتهم صحفا منشرة فإذا صحيفة المؤمن ورقة ورد وإذا صحيفة الكافر ورقة سدر والكل مكتوب فتطير الصحف فإذا هي بالميامن والمياسر وليس عن اختيار وإنما هي تقع بيمينه وبشماله وهو قوله تعالى ^(٤) : ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾.

وحكى بعض السلف من أهل التصنيف أن الحوض يورد بعد جواز الصراط وهو غلط من قائله فإنه لعين: يرده من قد جاز

(١) سورة عبس، الآية: ٣٤.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) سورة عبس، الآية: ٣٧.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٣.

الصراط ففي السبعة جسور يهلك الناس .

والسبعون ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب لا يرفع لهم ميزان ولا يأخذون صحفا وإنما هي براءة مكتوب فيها لا إله إلا الله محمد رسول الله هذه براءة فلان بن فلان بدخول الجنة ونجاته من النار فإذا غفرت له ذنوبه أخذ الملك بعضده وجاس به خلال الموقف ونادى هذا فلان بن فلانة قد غفر الله له ذنوبه وسعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا فما مر عليه شيء أسر من ذلك المقام والرسول يوم القيامة على المنابر والأنبياء والعلماء على المنابر صغار دونهم ومنبر كل رسول على قدره والعلماء العاملون على كراسي من نور والشهداء والصالحون كقراء القرآن والمؤذنون على كئبان المسك وهذه الطائفة العاملة أصحاب الكراسي هم الذين يطلبون الشفاعة من آدم عليه السلام ونوح حتى يتتهوا إلى رسول الله ﷺ نسأل الله العصمة والتوفيق بمنه وكرمه آمين .

وحسبنا الله ونعم الوكيل . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فهرس الآيات الكريمة

الصفحة

١٠	كل نفس ذائقة الموت
١١	الله يصطفي من الملائكة رسلاً
١١	ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته
١١	لا تخذناه من الدنا ان كنا فاعلين
١٥	ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا
٢٠	ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء
٢٣	وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه
٣٥	النار يعرضون عليها غدوا وعشيا
٣٦	فإنما هي زجرة واحدة
٣٨	قد علمنا ما تنقص الأرض
٤٢	نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم
٤١	وإذا صرفت أبصارهم تلقاه أصحاب النار
٤٢	يوم نحشر المتقين إلى الرحمن
٥٤	يا ليتني كنت تراباً
٤٣	أفمن يمشي مكباً على وجهه
٤٣	ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً
٤٤	أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون
٤٤	لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون
٥٣	تكاد تميز

الصفحة

٤٤	هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم
٥٥	سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة
٤٦	يوم تبدل الأرض غير الأرض
٤٩	لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم
٥٣	وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين
٥٣	يوم يكشف عن ساق ويدعون
٥٣	وترى كل أمة جاثية
٥٥	فلم يزدهم دعائي إلا فرارا
٥٥	إنا أرسلنا نوحاً
٥٥	كذبت عاد المرسلين
٥٥	كذبت ثمود المرسلين
٥٥	وقروناً بين ذلك كثيراً
٥٥	ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمه رسولها كذبوه
٥٥	والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله
٥٧	تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك
٥٧	هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم
٥٨	فلنسألن الذين أرسل إليهم
٥٨	يوم يجمع الله الرسل
٥٨	وامتازوا اليوم أيها المجرمون
٥٩	إن الله سريع الحساب
٥٩	ولا يظلم ربك أحداً
٥٩	إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون
٥٩	يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم

الصفحة

٥٩	اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم
٦٢	إِنَّهٗ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً
٦٨	فاعترفوا بذنبهم
٦٨	ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون
٦٩	وما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة
٧٠	يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه
٧٠	لكل امرئ منهم يومئذ شأن نفسه

فهرس الأحاديث الشريفة

الصفحة

- ١- لسكرة من سكرات الموت أشد ١٤
- ٢- لقنوا موتاكم شهادة ١٦
- ٣- أن ضررس الكافر في النار ٢٠
- ٤- لا تفتح لهم أبواب السماء ٢٠
- ٥- مرّ عليهم بجنّاة فقام تعظيماً ٢٣
- ٦- نهى رسول الله ﷺ عن كسر عظام الميت ٢٨
- ٧- ما من أحد منكم يمر بقبر أخيه المؤمن ٢٩
- ٨- نسمة المؤمن من طائر يعلق ٣١
- ٩- الشهداء في حواصل طيور خضر ٣١
- ١٠- من قتل نفسه بحديدة جاء يوم ٣٣
- الناس ينام فإذا ماتوا انتبهوا ٣٤
- ١١- عراة غرلاً . ٣٨
- ١٢- يحشر الميت في ثيابه ٣٨
- ١٣- أن أول من تنشق الأرض عنه ٣٩
- ١٥- اثنان على بعير وخمسة على بعير ٤٢
- ١٦- كان رجل من بني اسرائيل كثيراً ٤٣
- ١٧- أن شارب الخمر يحشر والكوز معلق في عنقه ٤٥
- ١٨- التائب من الذنب مكن لا ذنب له ٤٦
- ١٩- منبري على حوضي ٦١

الفهرس العام

٥	مقدمة التحقيق
١٠	فاتحة الكتاب
١٢	الفصل الأول: في أمثال الذر من المسح على ظهر آدم
١٣	الفصل الثاني: في الموتى الدنيوية
٢٠	الفصل الثالث: في موت الفاجر
٢٧	الفصل الرابع: في أحوال الموتى الفجرة في القبور
٣١	الفصل الخامس: في أحوال أهل القبور
	الفصل السادس: في أحوال الدنيا عند قيام الساعة
٣٥	وما بعد ذلك
٣٩	الفصل السابع: في الإقامة التي بين النفثتين
٥٢	الفصل الثامن: في شفاعته ﷺ.
	الفصل التاسع: في كيفية دعاء أهل الموقف وذكر
٦٣	الاختلاف فيما جاء في تفسيره.

هَذَا الْكِتَابُ

الكتاب للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد
ابن محمد الغزالي المتوفى سنة (٥٠٥هـ) وقد
سمّاه بـ [الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة].
وقد بحث في هذا الكتاب أموراً تُهم الناس في
دينهم وتميز لهم الطريق السوي من الطريق المعوج
من خلال استدلالاته وبراهينه على هذه الأمور
مدعماً قوله بالنصوص القرآنية الكريمة والحديث
الشريف.

فقد قسّم الغزالي كتابه إلى عدّة فصول،
وبحث في كل واحد منه قضية تفيد أولئك الذين
يحرصون على دينهم ويذودون عنه بكل ما
يملكون.

ومن هذه الفصول التي يتضمنها الكتاب:

في الموتة الدنيوية.

في موت الفاجر

في الإقامة التي بين النفختين.

في شفاعة النبي ﷺ

الناشر